

في معنى العمل

و مقالات أخرى
في التربية و الفن
و المنطق العلمي

obeikan.com

في معنى العمل.....

ومقالات أخرى في التربية و الفن و المنطق العلمي

اسم الكتاب: في معنى العمل و مقالات أخرى في التربية
و الفن و المنطق العلمي.
المؤلف: وهيب سراي الدين.
سنة النشر: 2012.
عدد النسخ: 1000 نسخة.
الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-439-96-5.
الناشر: دار مؤسسة رسلان.

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:
دار رسلان للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق-جرمانا-الأس الشرقي
هاتف: 00963115627060
00963115637060
فاكس: 00963115632860
www.darrislan.com

جميع العمليات الفنية و الطباعة تمت في دار مؤسسة رسلان

الإهداء

إلى أحفادي:

أدهم، وأصيل، وكريم، وفراس، وحمزة،

و سلطان.

محبة وامتداداً....

obeikan.com

في معنى العمل

كل كائن حي في هذا الوجود يحيا بالعمل، وبه يوجد، وعليه يرتكز. وتتصاعد درجة العمل حسب تطور النوع لذوي الحياة، ففي النبات تقتصر وظيفة العمل على تقديم ما تحتاجه النبتة في تغذيتها ونموها حتى تستكمل دورتها الحياتية، وتجف وتموت. أما الحيوان، فالعمل عنده حاجة للنوع، وامتداد لرغبة البقاء. أي أنه لم يرق بعد لينفصل عن الطبيعة. وكان العمل هكذا عند الإنسان الأول- الإنسان البدائي - حيث ظل زمناً سحيقاً جزءاً من الطبيعة. وظيفة العمل لديه تأمين ديمومة النوع وتلبية الحاجة اللازمة للحياة والبقاء. أو بعبارة أخرى مقابلة. كان العمل آنذاك جهداً فاعلاً ينتزع من العالم (الطبيعة) كل ما هو ضروري لحفظ البقاء النوعي.

ولكن بفضل تطور الطبيعة الفائق في جسم الإنسان، ولا سيما في دماغه، وبفضل ما ميزته به عن سائر المخلوقات الحية من قدرة على تجاوز الغرائز الحيوانية. التي مهمتها فقط تأمين متطلبات الأعضاء لتقوم بوظيفتها الفيزيولوجية - و كأن هذه

الوظيفة هي العمل، ممثلة الغاية في الوسيلة والوظيفة بالأداة والعمل بالعضوية حتى قال أرسطو في كتابه ((الكون والفساد)): إن اليد والدماغ هما عضوا فعل، فمتى تعطلا عن العمل كأنهما غير موجودين - قلت ما ميزت الطبيعة الإنسان عن سائر الكائنات الحية من قدرة على تجاوز الغرائز الحيوانية في خاصتي العقل والتفكير ليؤدي الإنسان وظيفتيهما خارج نطاق الذات، في البيئة والوسط الذي يعيش فيهما. وبفضل تطور الإنسان في استعمالهما، بفضل كل ذلك كان العمل الإنساني. وكان المجتمع الإنساني. وكانت الحضارة. قال ديكارت: الغرض من العمل مهما كان. رفاهية الإنسان وسعادته في هذه الحياة الدنيا، وسلطانه على الطبيعة واستخدام قواها لصالحه.

ولنقف عند هذه الجذور الأولى للعمل. فنجد أن العمل فيها لم ينفصل لدى الإنسان عن الطبيعة إلا عندما صار الإنسان يستعمل فيه عقله وفكره. وبالتالي عندما أصبح العمل صورة أو مشروعاً أو نموذجاً في ذهن الإنسان. وهنا تتبادر لنا فكرة يجب أن نوضحها. وهي أن نشاط الإنسان الفكري والعقلي والذهني عمل أو جزء لا يتجزأ من العمل الذي يمارسه بعضل جسمه. فنشاط الإنسان في

عضلات أعضائه، وفي خلايا دماغه عمل. وقد نوه ماركس في كتابه رأس المال عن هذه الصلة بين العمل الفكري والعمل الجسمي، وقال أنها موثوقة بروابط لا تنفصم، فالعمل عنده هو استخدام قوة العمل. وهي هذه مجمل الخصائص الجسمانية والذهنية الموجودة في شخصية الإنسان الحية التي يحركها لينتج أشياء نافعة. من خلال الراهن، الذي يتحول باستمرار نحو الذي يجب أن يكون. وهكذا أصبح للعمل معنى تجريدياً إلى جانب معناه التشخيصي. وصار يتسامى عن الممارسات والمعاناة المنفذة على الصعيد الواقعي - كما أشرت - هدفاً مستقبلياً واعياً. أي هدف سابق الوجود للفعل الإنساني نتجه به نحو الذي يأتي. على شرط أن تكون صيرورة هذا الاتجاه من خلال الواقع وفرضياته، كما يقول (روجيه غارودي).

إذن نرى أن نشاط الذهن أو عمله، سواء أكان عقلاً أو فكراً يدخل بقوة في معنى العمل من خلال الكائن، من خلال الراهن الذي يتحول باستمرار نحو الذي يجب أن يكون.

ويكثر القول في هذا المعنى الفكري أو الفلسفي للعمل من قبل المفكرين والكتاب. حتى أن بعضهم يتحمس أكثر ويعتبر أن النشاط الذهني هو الأساس في العمل، ونحن لا ننكر، كما علمنا من سياق

الحديث، لا ننكر قيمة النشاط الذهني (الدماغي) في خلق العمل وتطوره، ولكن يجب أن نعرف بالمقابل بالممارسات العملية الأولية التي كان لها الدور الكبير في خلق النشاط الذهني لدى الإنسان. وبالتالي في تطور عمل الدماغ في رأسه، ولا أظن أن أحداً ينكر ما للممارسات العملية الحية من مردود جليل في ذهن الإنسان، أي الواقع المادي العملي هو قبل و أساس الواقع العقلي لدى الإنسان ونرى قديماً الفيلسوف اليوناني (أناكسوغوراس) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، قد أشار إلى هذا المعنى، فقال أن العقل لدى الإنسان هو محصول عمله اليديوي.

كما نرى المعنى نفسه في الفلسفة الحديثة، فهذا (برغسون) الفيلسوف الفرنسي يقول أن عقل الإنسان لم يتكون ويتطور إلا لأن له يدين تصنعان الآلات. وحمل على المتصوفة الذين يحتقرون العمل. وقال كلمته المشهورة: العمل جوهر الوجود، وهناك من تحمس وغالى فتبنى مقولة (ديكارت) معكوسة: أنا أعمل إذن أنا موجود، هذا بالإضافة إلى ما تتبناه العقيدة الماركسية في إيديولوجيتها المادية المشهورة. على كل. إن مشكلة أسبقية العقل والمادة، أو بتعبير آخر أسبقية العمل الفكري والعمل العضلي، ليس مخصصاً المجال

لها، ونكتفي بهذا الإلماع الخفيف لنظهر ذلك التفاعل الجدلي بينهما. أي لنشير إلى هذا التبادل النافع الذي يتم بينهما، والذي استفادا منه معاً في تقدمهما وتطورهما. والذي سيبقى بينهما بالضرورة إلى ما لا نهاية.

وبعد تطوير العمل لدى الإنسان عن العمل لدى سائر المخلوقات في هذا الوجود بما اكتسبه من صفات معنوية أو من معان خلقية لا بد له - أي للعمل - من تطوير معناه على الصعيد الواقعي فاعتبر حقاً وواجباً معاً، على الإنسان، بل اعتبر كحق طبيعي للإنسان، وواجب طبيعي عليه، يأخذه ويؤديه بكل ما يملكه من قوى ومكنات. قال بابوف في بيان الاستبداد عام 1796 ، الذي نشره إبان الثورة الفرنسية الكبرى! إن الناس كلهم ملزمون بالعمل. وأضاف الفكرة نفسها سان سيمون الاشتراكي الفرنسي المعروف: إن المجتمع ملزم بتأمين العمل، والكل ملزمون به. وقال زميله لويس بيلان: للإنسان الحق أن يحيا ولا يتحقق هذا الحق إلا بالعمل.

وهكذا أصبح للعمل معنى حقوقياً إجرائياً في المجتمع، فاعتبر أنه حق طبيعي وواجب طبيعي لكل إنسان في هذا العالم. فكل فرد يجب أن يفسح له المجال لممارسة العمل وتأديته. ومن هذا المعنى

الحقوقي للعمل نصل إلى معنى آخر هو المعنى الاجتماعي. لأن الحقوق والواجبات لا تمارس إلا ضمن نطاق المجتمع. لما كان العمل حقاً طبيعياً للإنسان، أصبح بالمقابل واجباً طبيعياً مترتباً عليه. إذن العمل في المعنى الاجتماعي يجب أن يؤدي ويمارس ضمن إطار الجماعة. ولذلك لا يقوم العمل في الوسط الاجتماعي إلا على أساس التعاون والتضامن حكماً.

وبالطبع هذا المعنى التضامني (الاجتماعي) للعمل يسيطر على مجال الضرورة لدى الفرد ويهيئه إلى مجال الحرية، فينمي فيه البوادر المتحررة التي تقوي الأواصر الاجتماعية وتمتد الروابط بين أفراد المجتمع. فتدخل في معنى العمل من هذا الباب الوحيد، ويصبح العمل تعبيراً عن حرية الإنسان الجماعية لأداء العمل. أو بتعبير أقوى، أقول لتغيير الطبيعة واستخدامها. وفي هذا المعنى يحضرني هذا التنويه، ولا أدري من صاحبه: إن الأشخاص الكثيرين الذين يقعون في معاملهم أو وراء أنوالهم ومحاربتهم هم الأكثر تمجيداً لإرادة الإنسان في الحرية والتقدم في العالم لأنهم يعملون.

ومن هذا المعنى، معنى الحرية الاجتماعية للعمل، أصبح العمل شرفاً ونبلاً للإنسان، بحد ذاته، لا عبئاً يثقل كاهله ويحط من قدره. أو بالتالي أصبح قيمة

اجتماعية عالية سامية ترتبط بالواجب الوطني والإنساني معاً. ولهذا لا عجب إذا وجدنا لها صفات الاحترام والتقديس في كل المجتمعات. حتى قال (لامنيه) الفرنسي: العمل واجب من قبل الله تؤديه الإنسانية كمهمة.

وطبعاً من خلال هذا المفهوم الاجتماعي للعمل، أو في مرحلة اجتماعية العمل، أي ممارسة العمل اجتماعياً. تمكن الإنسان أن يطور ويكون ذاته وفقاً للمجتمع ولمتطلبات البيئة القائمة.

وهكذا راج المفهوم الاجتماعي للعمل وتم تقسيمه في المجتمعات الإنسانية واتخذت عملية تقسيم العمل في المجتمع لها حيزاً كبيراً في بحث فلسفة العمل، وشغلت فرز المفكرين. فمنهم من اعتبر تقسيم العمل فكرة متقدمة على مسار تطور العمل الإنساني - وشبهوا فرز الاختصاص وتحديد نوع المهمات والوظائف في أعضاء (أفراد) جسم المجتمع بتحديد مهمات ووظائف الأعضاء في جسم الإنسان، تخصص كل منها في وظيفة - عمل يخصه. ومنهم من تفاعل أكثر فاعتبر فكرة تقسيم العمل وسيلة للتعاون والتراص الاجتماعي.

وبالعكس منهم من تشاء من تقسيم العمل واعتبره تعطيلاً للفكر الإنساني. لأنه يعتمد على التكرار. ومنهم من اعتبره وسيلة للاستغلال والتسلط. ومهما

يكن من أمر فإن تطور التاريخ الحضاري للإنسانية فرض تقسيم العمل في المجتمع والتخصص بنوع معين بين الأفراد فيه.

ومن هذه الزاوية أصبح ينظر للعمل من حيث الإنتاج والمردود الاقتصادي. فدخل العمل منها في معنى الاقتصاد من بابهِ العريض الواسع، حتى طغى عليه هذا المعنى في القرن التاسع عشر، وأصبح العمل لا ينفصل عن الاقتصاد. حتى نالت فكرة اقتصادية العمل هذه حماسة كبيرة لدى البعض و أورد مثالا لها ما قاله (ثولان) المفكر الفرنسي عندما أعلن أن المجلس النقابي العمالي هو المؤسسة الاقتصادية الأم، وهو مؤسسة كل تقدم اقتصادي.

ولكن بهذا المعنى الاقتصادي للعمل، أصبح هذا- أي العمل- مطية له ووسيلة لاستغلال العمال و جماهير الشغيلة في العالم من قبل الطبقات والفئات المتحكمة اقتصادياً في المجتمعات. وبعد هذا يوضع العمل على مشرحة مفكري الاقتصاد السياسي ليحلل كسلعة اقتصادية فحسب. فنرى مثلاً أن كلمة (عمل) لدى بعض الاقتصاديين النظريين التجريديين اتخذت عندهم مدلولاً رياضياً بحتاً، فالعمل يساوي استخدام جهد ما لأداء شغل ما. وهو يشترط إذن قوة. فيكون هو تطبيق قوة ما خلال

مساحة ما وضمن زمن ما. وبالتالي نصل إلى أن العمل هو طاقة محققة فعلاً. ولما كان العمل طاقة فله إذن قياس، هي وحدة قياس الطاقة. وهي (الأرج) المعروفة عند علماء الطاقة والفيزياء وإلى هنا هذا الكلام صحيح بالنسبة لتجريد وتنظير مفهوم العمل العلمي. ولكن للعمل في معنى الاقتصاد مفهوماً أوسع وأعمق من هذا المفهوم العلمي الرياضي المجرد. له مفهوم تاريخي جدلي. فيدخل كعنصر مادي في الحضارة الإنسانية. وكأساس فاعل في صيرورة المجتمعات البشرية، وكقوة فرز تاريخية في بناها التطبيقية.

و أول و أقوى من عالج هذا الموضوع في العمل، على الإطلاق، هو (كارل ماركس في كتابه الشهير - رأس المال). فالعمل عنده ضرورة أبدية. أي هو الوساطة للدورة المادية القائمة بين الطبيعة والإنسان، إذن العمل، هو قيمة. قيمة نافعة ثرة. قال أنجلز في هذا المعنى: العمل هو مصدر كل ثروة ومقياس جميع القيم.

ولكن لا يأخذ العمل عند ماركس معنى هذه القيمة إلا عند تجمده أو تشيئه. أي عندما يتخذ شكل شيء من الأشياء. أي عندما يتجسد مادة وهذا لا يتم طبعاً إلا بعد اندماجه - اندماج العمل - في موضوعه، وبعد هذا الاندماج يتحصل قيمة إضافية جديدة تنقل

للموضوع من كمية العمل التي أداها العامل.
فالعامل بوساطة قوة العمل - أي بوساطة العامل -
هو خالق القيمة وهو الذي يحول شكلها ويزيد من
أهميتها ومكانتها.

إذن في عرف ماركس وأنجلز، العمل هو مصدر
كل القيم وخالقها في العالم. ومن بينها طبعاً القيم
الاقتصادية، والثروات التي ازدادت في القرن
التاسع عشر الذي عاش فيه ماركس، ازدياداً هائلاً.

ولكن لنلاحظ أن ماركس لا يعطي لقوة العمل - أو
لطاقة العامل على العمل - صفة فردية ذاتية؛ بل
صفة جماعية. حيث يعتبر القدرة، أو الطاقة على
العمل - أو العامل - منتجاً مجتمعياً. فقدرة العامل
على العمل توازي العمل اللازم مجتمعياً لا نتاج
القدرة على العمل وإعادة إنتاجها.

ومن ثم تصدى ماركس - كما هو معروف - لسرقة
العمل. أو بالأحرى لسرقة قوة العمل، من قبل
الرأسمالية. هذه الطبقة الطفيلية التي تعيش على
حساب جهد وعرق فئات العمال والشغيلة دون
حق. قال جوزيف برودون الفرنسي الذي عاش في
النصف الأول من القرن التاسع عشر أن كل ملكية
تجيء من غير طريق العمل فهي سرقة.

قلت تصدى ماركس لسرقة قوة العمل، وذلك
بتحليله للعمل والقيمة وفضل القيمة. ثم شرح

المذاهب البرجوازية وعراها تعريّة كاشفة. وبني بالمقابل لها إيديولوجية الاشتراكية الشهيرة، لقد اعتبرت الطبقة البرجوازية ومفكروها أن العمل ليس إلا سلعة للبيع والشراء، أي أن العامل يبيع جهده - عمله - أو يؤجره للمستثمر الرأسمالي. وما العامل أو الشغل عند هذا الرأسمالي، إلا قوة عمل اشتراها بماله. وفي المناسبة تستعمل الرأسمالية كل الفنون في استغلال وابتزاز هذه القوة بتقنية زائدة. فمثلاً النظام الرأسمالي (التايلوري) المعروف، يقيس حركات العامل لموافقتها مع الآلة الملائمة. ليعطي فيها أكبر مردود بأكبر جهد بأقل زمن. وقديماً كان أشرف روما (الرأسماليون) ينظرون إلى العمل والعامل النظرة نفسها، الاستغلالية الابتزازية حتى بالغوا بالأمر. فاعتبروا العامل ملكاً لرب العمل بلحمه ودمه. فالشريف الذي سلف العامل - قوة العمل - المال اعتبر أن هذا العامل أصبح ملكه الخاص يتصرف فيه كما يتصرف بإحدى عقاراته مثلاً. لأن المال الذي سلفه إياه دخل في جسمه عن طريق الغذاء الذي اشتراه به فتحول في جسمه إلى لحم وعظم ودم. إذن هذه الأشياء الثلاثة أو هذا الشيء الجامع لها ككل الذي هو العامل، هو مال الشريف بشكل آخر فيجب أن يستغله ويستثمره، كقوة عمل لصالحه الخاص

استغلالاً تاماً. وأجزم أن ملكية العامل هذه لهي أبشع صور النفي والاستلاب الإنساني في تاريخ العمل البشري.

واشتدت قبضة الطبقات الاقطاعية، وبعدها البرجوازية التي صارت فيما بعد رأسمالية. اشتدت أكثر في استغلال العمال وشراء قدرة العمل منهم بثمن بخس متعسف. فكان الظلم الاجتماعي والاقتصادي لفئات العمال والشغيلة. فانبرت أقلام عدة تدافع عنهم وتوعيههم وتفهمهم قضيتهم وحقوقهم. وجنت هذه الزروع حصاداً غنياً حيث انتظم العمال في حركات مقاومة للرأسمالية في دول عدة. وطالبوا برفع الظلم والاستغلال، وبحقهم الكامل في استغلالهم قوة عملهم وملكيته الشرعية لها. وأهم وأكبر الحركات العمالية التي ثارت وطالبت في حقوقها في تاريخ العمل، هي حركة العمال الإنكليز المعروفة بالميثاقية (الشارتية) التي انتظمت في صفوفها جماهير العمال في بريطانيا عام 1932 و أعلنوا حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. بموجب ميثاق، فسميت هذه الحركة باسمه.

بعد هذه الجولة الطويلة نوعاً ما في معنى العمل، أو فكرته، أن لنا أن نقف قليلاً على دوافع العمل

لدى الإنسان أو بالأحرى على المعنى النفسي للعمل.

وهذه حقيقة مطلقة! أن يكون للعمل عوامل ودوافع نفسية. إذ مما لا شك فيه أن في العمل تتجلى شخصية الإنسان وتظهر كل صفاته ومعانيه، فالعمل الذي وجد من أجل الإنسان. لا بد أن تستبطن فيه روح العمل وتستكن في أعماق نفسه غاياته ومرامييه. فهذه الجذور النفسية الأولية للعمل لا بد أن تصقل الإنسان باطناً وظاهراً. نفساً وجسماً. وتقربه نحو أسمى معانيه وكمالاته. قال ديكارت: إن الغرض من العمل تكميل النفس. وهذه الأصول الأولى للعمل في نفس الإنسان أتى عليها (فرويد) في بحوثه المشهورة في التحليل النفسي وعلم النفس. حيث قال أنه توجد غرائز طبيعية لدى الإنسان ضمن غرائزه الجنسية. وتحرير غريزة العمل يعبر عنه في المجتمع بوصفه تعاوناً. أن يقوم على أساس التضامن. إذاً عند فرويد العمل غريزة تملّي على الإنسان رغبتها في التنفيذ، ولكن لتدرك أنها تصبو في هذه الرغبة نحو اللذة الذاتية، ولن تتخذ عنده المفهوم الاجتماعي الإنساني المسؤول. وقبل فرويد نرى (فورييه) يقول بأن العمل مصدر لمتعة حقيقية ويجب تكيفه حسب الميول. كذلك نرى (أوين) الانكليزي يركز على

جعل قيمة أخلاقية للعمل. والناس يؤدون به خدمة من ابتهاجهم. أما (فيخته) الألماني فيقول بتوجيه العمل نحو الرغبة. ويفسر ذلك، إذ يشير إلى أن اللذة الناجمة عن العمل تجعلنا تابعين للأشياء، واللذة تجعلنا نعمل.

إذاً كلهم يدورون في دوامة الذات الفردية ودافع - الأنا لا نحن - للعمل، وهذا المعنى الذاتي النفسي قد اضمحلّ وجمد في مكانه نظراً لمخالفته المقومات الأساسية التي يركز عليها العمل لدى الإنسان والمجتمع على حد سواء، كما أشرت سابقاً. ولا تبقى إلا معاني العمل ودوافعه النفسية الجماعية التي تهيمن عليها الروح الغيرية وتوجهها الرغبة المجتمعية المتأصلة في النفس الإنسانية.

وحدة الفكر والعمل لدى الإنسان

طبيعة الحياة العملية التي يعيشها الإنسان، جعلته وجهاً لوجه أمام مقارعة الطبيعة نفسها، وممارسة الاختبارات فيها، والاحتكاك بالواقع، الأمر الذي جعل لديه تفاعل العقل والعمل، الفكر والتجربة، وهذا ما آل إلى استنتاج الحقيقة الغنية، الصالحة لبناء الحضارة بكل معطياتها العلمية والتكنولوجية والاجتماعية، والاقتصادية.

وهكذا نرى أن الإنسان بفطرته على العمل، وبمعايشته للواقع، يكون أكثر المخلوقات التصاقاً بالحقيقة ومساهمة في صنع المعارف، ومشاركة في نقلها وتقديمها كغذاء دسم للحضارة الإنسانية، هذه الحقيقة التي نبتت مع المعارف العلمية على جذور عملية راسخة، وارتكزت جميعها إلى أصول واقعية في التجربة الحية، واتخذت مفاهيمها في التطور والتقدم، في العصر الحديث، وبخاصة مفهوم الحقيقة النسبية التي تحطمت على مبدئها الحركي الدائم، مبادئ الحقيقة الثابتة أو المطلقة.

ومن تأثير الحقيقة الواقعية النسبية على مبدأ الحقيقة ككل، واعتدالها عن المفاهيم المطلقة. تأثرت الحركة الفكرية في العالم، فانعطفت حركة الفلسفة عن مفهومها المثالي البحث، واتجهت نحو الواقعية التجريبية، وأصبحت تعني بمضامينها الجوهرية جملة القوانين المكتسبة بالتجربة أي بالعمل وليس بناء على مفاهيم مسبقة الصنع ثابتة وآراء فردية ذاتية، قال أحد الفلاسفة المحدثين ((إن الفلسفة الحقيقية يجب أن تعنى لا بمجرد التأمل، ولكن بوحدة الفكر والعمل)).

لذا، الفكر يتخصب بالواقع والعمل معاً، وي طرح علمياً ما يعرّيه من المساهمة العملية والتجارب الواقعية الحية التي أغنت الذهن الإنساني في حقائق الأشياء وزادت من معارفه في جوهرها ومضامينها، لذا يجب استيعاب هذه الحقيقة التي لا جدال فيها وهي أن يترتب على المفكر المنظر أن يتمسك بالواقع الحي الخصب، والوقائع الدقيقة الملموسة من أجل تبين الجوهر العام في إعطاء تقدير تقريبي لتعقد الحياة، يقول (غوته) في مأساة (فاوست): " إن النظرية رمادية اللون يا صديقي، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد".

فالحقيقة بين النظر والعمل الحي إدراك موضوعي يتولد بفعل الوعي الناتج عن التفاعل المتجدد مع

الوسط الخارجي والتلاؤم المستمر مع ضرورات ومتطلبات الظروف.

وأمام هذا المفهوم الجديد للحقيقة ومنطلقها العلمي - العملي، يحضرنى أن أسجل اعترافاً للفيلسوف الفرنسي الشهير (هنري برغسون) قال: " المعرفة لم تعد نتاجاً للعقل وإنما تصبح بمعنى ما جزءاً لا يتجزأ من الحقيقة الواقعية.. الشيء الخلق بالإعجاب، والجدير بالدهشة هو الخلق المتجدد المستمر الذي تقوم به الحقيقة الواقعية الكلية غير المنقسمة.. أن الحقيقة الواقعية هي نمو مستمر وخلق متتابع لا نهاية له".

يتحمس للفكرة الفيلسوف الفرنسي (مارسيل غابرييل) فيحكم بإدانة كل من يخالف هذا المبدأ، وعلى كل، تحصل من هذا النهج للحقيقة الاهتمام بالرأي العام، أو بالفكر المتولد عن "الكثرة" إذ يعتبرها المعين الأول للتعليم واستلهم الحقائق والمعارف، والنظر بموضوعية في جوهر الأشياء، يقول أحد المفكرين في هذا الصدد: " يتهموننا بأننا نخترع رأي جماهير الناس، إننا نصوغ هذا الرأي فقط".

وهذا يكون استناداً إلى العلاقة الجدلية - الديالكتيكية التي تربط بين العامل البشري وبين العامل الموضوعي، حيث يعني بالعامل الأول أسس

الممارسة الإنسانية الواعية لتغيير المجتمع والطبيعة، وبالعامل الثاني يعني انعكاسات ومعطيات الأحوال الاجتماعية السائدة ومنها الاقتصادية والثقافية الخ... ومن هذه العلاقة الجدلية انحصر الحصول على الحقيقة في طريق تحقيقها على الأيدي العاملة بكل ما لكلمة "العمل" من معنى، قال الفيلسوف اليوناني (أناكوغوراس) في هذا الموضوع: "إن عمل العقل الإنساني ما هو إلا محصول عمله اليدوي".

وهذه الفكرة يعيد صياغتها الفيلسوف (هنري برغسون) المار ذكره يقول: "إن الصفة الجوهرية للإنسان هي أنه كائن عامل، فعقله لم يتكون ويتطور إلا لأن له يدين تصنعان الآلات" أي الذي يخوض غمار الحياة والعمل يتعلم كما يتعلم من الكتب، فقال فيلسوف آخر: "إن الحياة خير معلم".

وهكذا يتم خلق الأفكار والمفاهيم في الواقع والحياة، نلمسها من خلال الممارسة والتجربة والاحتكاك العملي لها في الطبيعة والأشياء، ويرفعها الذهن من درجة الفهم، وتجريد الوقائع إلى مرتبة الوعي الموضوعي والنضوج الذاتي.

إذن يجب التركيز على التفكير داخل الحياة القائمة على النشاط البشري وما تصنعه الطاقة المخترنة في أفرادها، تبقى آخذة في حركتها مفهومها

التاريخي المبني على مبادئ الجدل الموضوعي
القائم على الصراع الدائم والمستمر في الوجود.
وهكذا يتبلور أكثر القياس الموضوعي في معرفة
جواهر الأشياء... وعنصر الرؤية للذات التاريخية
في "الحقيقة" التي لا تعيش إلا في نهر الحياة
الواسعة.

في جدل الغاية والعدالة والسعادة

إن كل شيء في هذا الوجود، سواء أكان فكرة أو مادة، يسعى إلى مثل أعلى له يجب أن يكونه، أو هدف أسمى يُصرّ أن يحققه، وبعد قطع مسافة من هذه الصيرورة، يصبح تقييم الشيء ذاته وسيلة لغاية أكمل، تكمن خلفه، وتصبح هي علة كونه تستخدم في سبيل الوصول إلى غاية أرفع منها، تقع مراكزها فيما وراء الغاية نفسها.

أو بتعبير آخر، ما ورائية الغاية هذه التي تستهدفها هي، سر وجودها لدى الإنسان، وهي مبرر فلسفتها ومطمح تطلّعها.

إذاً، ماذا تكون هذه الغاية التي نسعى إليها في حياتنا الاجتماعية؟ نحن نعرف من خلال دراسة حركة التاريخ المجتمعي، على الصعيدين الفكري - النظري - والتطبيقي - العملي، أن غاية العدالة، بمحض مفاهيمها الجوهرية، قد التزمت بحياة الإنسان، وصاغت نفسها أداة لتنظيم مجتمعه وتطور وجوده، لتصل إلى ما تنشده على الدوام، وهي سعادة الإنسان وإقامة مجتمعه الإنساني

البحث، ولكن لا يغرب عن بالنا أن ذلك لا يتم بسهولة، بل لا نصل إلى جزء من ذلك إلا بصعوبة ومشقة بالغتين، فلقد سلكت حركة العدالة في المجتمع الإنساني، وما زالت، من أجل إنجاز بعض المكاسب النسبية في مهماتها و أهدافها، طريقاً طويلة من النضال والكفاح المريرين عبر التاريخ، فقيمت الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسود المجتمع البشري وتتحكم بإنسانيته المنتج، فوسمتها بالظلم والجور وراحت تعمل على رفع وإزالة كل ما ينجم عنها من أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وأخلاقية، تكافح من أجل ذلك بحرارة صوفية استمدتها من عقائدها ومبادئها الصارمة، فأعلنت بدافع من حتمية التاريخ الإنساني من خلال حركته التي لا تتوقف، أعلنت بطلان تركيبة الظلم الاجتماعي، ونادت بسيادة الحق والعدل والمساواة، حتى يتم توزيع الدخل على الأفراد كافة، كل فرد حسب استطاعته الإنتاجية، وقدرته العملية، وطاقته الفكرية، والدمج في طبقة اجتماعية واحدة متساوية في الحقوق والواجبات ومتكافئة في المساهمة بالإنتاج والخيرات على حد سواء.

ولهذا فقد شن المصلحون الإنسانيون، والمفكرون الاجتماعيون، عبر القرون المديدة، أفكارهم

وكفاحهم ضد نظام الرق قديماً، ثم زادوا في تكريس مفاهيم نضالهم ليعمقوها عمودياً وينشروها أفقياً لتكون في خدمة الشعب بكل فئاته.

أجل، إننا نرى العالم اليوم يعيش، في ظل هيمنة نظام القطب الواحد، الذي انفلت خلصة عن مسار التاريخ، ليلقي على هذا العالم أزماته الإنسانية الخائفة الناتجة عن الامتيازات والتسلط والشوفينية والفوقية والتحكم بالمصير السياسي والاجتماعي للدول، وبالتالي لتكريس الاغتراب الخلقي والفكري والثقافي لدى الشعوب، الأمر الذي ضاعف الكفاح العدالي لدى المجتمع البشري ليقاوم هذا التعسف الطارئ الجديد، وهكذا أخذت العدالة نفسها تعري هذا التطرف في السلوك الدولي وتتادي أكثر فأكثر بنفي التناقضات الاجتماعية ومحاربة الأوضاع الدولية المنحرفة لتصل إلى مجتمع إنساني سليم وعادل وسوي، نهجه مستقيم واضح، وعلاقاته مبنية على الحق والعدل والمساواة، معتمدة العقل والعلم في تحقيق ذلك، ومن الطبيعي ستؤول كل هذه الأمور الصحية إلى خير الإنسان على سطح هذه الكرة الأرضية وإلى سعادته فرداً ومجتمعاً وفق النظام الذي اصطفته إرادة الحياة البشرية نفسها.

ومن هنا تنطلق ثورة العدالة الاجتماعية هذه في المجتمع الإنساني من أجل تبديل البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وما نتج عن نظام القطب الواحد، لتصب بعد التبديل في مصلحة التقدم وتحرير الإنسان من كل ألوان الاضطهاد والاستغلال، وإزالة العراقيل من أمام عجلة التطور العلمي والحضاري، إذ لا غرو أن تجند كل القيم التقدمية والأفكار المتنورة الذكية والمناهج العقلية، في العالم، لتقوم بتنسيق العلاقات البشرية بالشكل الذي تفتح فيه الروح الإنسانية، بدنياميكية فاعلة، تكون حية مثمرة في صراع الإنسان الخالد مع نفسه ومجتمعه والطبيعة، ليصل بعد ذلك إلى الحياة اللائقة الكريمة المنفتحة على الحق والخير والجمال، والمرتكزة على العدل والحب والمساواة، والمنطلقة نحو العطاء في عالم القيم والأخلاق والإبداع، على سطح هذا الكوكب الأرضي الواحد.

إذن نفهم أن جدل الغاية والعدالة ليس هذه الثورة في الأفكار والمخططات التطبيقية والإيديولوجية النظرية فحسب. بل كل هذه وتلك ما هي إلا وسائل تعتمد على العدالة الاجتماعية لتصل إلى ذاتها الكامنة في (ما ورائيتها) - غايتها. التي هي سعادة الإنسان والمجتمع معاً.

وهنا نصل إلى سؤال كبير: ما هي هذه السعادة؟

فإننا على ضوء ما تقدم نرى أن السعادة قد اتخذت في التقييم الحديث مفهوماً مغايراً لمفهومها في بقية المذاهب والفلسفات الأخرى. هذه المذاهب والفلسفات التي تحصرها في نوال الراحة واللذة والعيش الهنيء. بينما نرى أن السعادة في المفهوم (العدل) الحديث، قد أصبحت كلمة جامعة ذات مدلول واسع شامل في نظر الإنسان. فهي لديه جهد وعطاء في عالم المثل والقيم والأخلاق. وهي راية بيضاء ترفرف فوق المجتمع. وتشدّ أفراده بأواصر المحبة والإيثار. وهي، أيضاً، تطلع وتفاعل مع سائر عوامل الوجود وعناصر الطبيعة. إضافة إلى أنها إرادة خلاقية وعقل مبدع. ونزعة جامحة نحو الكمال. وبالتالي هي استشراف على هناءة الإنسان في عالمه المادي وعالمه الروحي معاً. وشعور مطلق بالطمأنينة النفسية والفكرية والاجتماعية، من خلال نضاله العنيد. وإصراره على التقدم والارتقاء.

وهكذا نجد بوناً شاسعاً بين المعنى التقليدي للسعادة ومفهومها القديم في (اللذة)، وبين المعنى التقدمي الجديد لها. وفي الحقيقة نرى أن التاريخ يعلمنا أن المجتمعات التي اتجهت نحو مفهوم السعادة إلى حياة الترف والبذخ، قد تراخت وانهارت، لأنها أغفلت الجوهر الحقيقي للسعادة ذا الطابع المتجدد،

الذي تتحول السعادة إلى التطور المتواصل. أي تصبح السعادة كناية عن جهد مستمر وخلق متواتر مع الزمن وتطلع لا ينتهي. يستهدف الأكمل في الوجود والحياة. نعم. هذه هي السعادة الحية التي تتجه إليها الإنسانية، بكل وسائلها التي تستعملها. وهذه هي العلاقة الجوهرية ما بين السعادة والإنسان، التي تقرّ بأن الإنسان السعيد هو الإنسان الحي الحرّ الخلاق في مجتمعه. الذي يعتبر أن له في الكون رسالة. ويقدر أن الحياة مسؤولية.

دور ملكة الخيال في عمليات الفكر والتربية

لا يقتصر السعي وراء حقائق هذا الكون وملاحظة المعارف الموجودة فيه، على العقل وحده. بالرغم من مكانة هذه الملكة العتيدة بين ملكات النفس الإنسانية، في عالم المعرفة ككل. فهي - أي العقل - الأداة الذهنية الواعية العارفة، التي تستند في تصديها لكل ما يعترض في عملها ووظيفتها إلى التجريب والبرهنة، والتثبت والتحقق على ضوء مبادئ التنسيق وشروطه الواضحة المحددة.

قلت، لا يقتصر العمل في هذا المجال المعرفي على العقل وحده بل تشاركه فيه ملكات أخرى، لا تتظاهر مثله بل تقبع خلفه في طبقات النفس، وتمده بكل أسباب الطاقة والقدرة والعدة والمؤونة. ليبقى أكثر جاهزية في مهمته: يستنتج، يستنبط، يكتشف، يحدد إلخ... ويأتي على رأس تلك الملكات ((الخيال)).

هذه الملكة الجموح اللعوب، التي نلوذ إليها أحياناً من هموم الحياة ومتاعبها، ونحتمي بفضائها

الرحب، من الملل والنفور اللذين نصاب بهما من استعمال وظيفة العقل وتعامله معنا بقسرية الأنظمة وصرامتها. وذلك من خلال منظورها الساحر العجيب. فنعيش معها - أي ملكة الخيال - لحظات مريحة ممتعة. ليس في واقع الجمال وما فيه من روائع الفن والأدب والموسيقى فحسب، بل في هذا الواقع الفسيح، اللامحدود من عالم المعرفة المليء بالخفايا والأسرار، الزاخر بالحقائق والمعارف والتي يطل فيها علينا الخيال بظلالها المتطاوله ورسومها المشوشة. فتظهر على شكل مخايل وأساطير، تحمل لنا بذور المعرفة الأولى، والعناصر البدائية لمكونات العقل. وطبعاً ليست الأشياء المباشرة المنظورة والمحددة هي كل الأشياء في هذا الوجود. ولا الحقائق المنطقية المبرهنة - المعقولة - هي كل الحقائق فيه. ولم تأت الصورة الجميلة المبروزة على الجدار، المشرقة بألوانها إلا من مسودتها الخلفية العاتمة. لكل شيء في هذا العالم مسودة "نيكاتف" - خلفية - أو بلغة الفلسفة ((ما ورائية)). يولد من رحمها وينبع من جوهرها. ومن ثبات وجود الجانب المقابل للأشياء كان - بالضرورة - الخيال لدى الإنسان جانباً آخر للعقل. أو إحدى دعائمه الكبرى في عالم المسودات. وهنا يفهم أن الخيال الذي نعني، ليس

هو تلك الشطحات ((الفنتزية)) المغرقة في اللاواقعية والغرائب العبثية اللامجدية. ولا هو أيضاً، هذه الحالة من الشعور السعيد الخالي الذي يصل بالإنسان إلى أقصى درجات السكون والخمود. أو إلى ما يسمى بحالة ((النيرفانا)) حيث لا تعب، لا هم، لا تفكير. بل لذة، دفء، وتحليق بعيد عن الواقع والحياة معاً. إنما نعني الخيال القابع وراء العقل وخلف الحواس كملكة غزيرة متدفقة. تشكل بهلاميتها الوسط الهولي لليقين. أو بالأحرى المادة الخام والتي يستمد منها العقل الشعور في كل عمليات الإدراك والوعي والفهم التي يقوم بها. وهكذا ننفذ إلى قيمة الخيال في ((عالم المعرفة)) ووظيفته العملية - لا الخيالية - في صنع الفكر وفي الحياة.

يقول أحد المربين " ينبغي أن نحلم". وعرف الحلم بأنه الحياة - بالفعل -.

كما ننفذ إلى مدى ضرورة الخيال في عمليات التربية. وضرورة تنمية تربيته لدى الناشئة ككل. ولدى الدارسين والباحثين أيضاً. في المستوى الذي لا يقل عن مستوى الاهتمام بوسائل المعرفة الأخرى.

ليصبح - أي الخيال - أداة معرفية فعالة نتمكن - عن طريق تربيته الصحيحة - أن نغرس في الذهن

الإنساني القدرة على الخلق والإبداع. وبالتالي ترسيخ فيه خاصية الخيال الشهيرة. ألا وهي ((التجاوز)). فنستطيع أن نتجاوز به واقعنا الإنساني وتجاربنا العقلية المشروطة بحدود محرمة، كالتابو، إلى تجربة جديدة، تجربة الخيال التي ستتموضع في عملية ((التجاوز)) هذه داخل الواقع الإنساني لتجعله مزدوجاً ذا وجهين: المباشر واللامباشر. من ذواتنا الظاهري والباطني. ويتمركز الخيال طبعاً، في الوجه الثاني، في اللامباشر. فيمكن في ((ما ورائية)) عالم النفس ككل عملية ذهنية أو عقلية، التي نعالج بها الحقائق والمعارف في هذا الكون - الوجود - .

ونرى في الوقت نفسه من خلال هذه الماورائية، مساهمة الخيال في تمكين العوامل الفطرية الباطنية في النفس، والبيئية الخارجية في الوسط. لتتناولها التربية في مؤسساتها، وتقدمها للمجتمع مشفوعة بخاصية ((التجاوز)). التي وصلت في العمليات التربوية إلى غاية مهمة من غاياتها الأساسية. وهي الابتعاد بقدر الإمكان عن عطالة الأوامر التنفيذية، والقوانين الجبرية، والأهداف مسبقة الصنع.

يقول (روجيه غارودي): ((والفضيلة الكبرى التي ينبغي أن نعتني بتربيتها، ليست هي المنطق، بل الخيال. وإلا ارتدت الثقافة إلى وظيفة أداء عمليات

تنفيذية صرفة، وظيفة تقوم على اعتبار الغايات معطاة سلفاً (1) ((...))

وبالتأكيد إذا ما تجاوزت التربية مبادئ الجبرية والمحدودية تلك. فنصل إلى أهم غرض من أغراضها المنشودة، ألا وهو اكتساب الإنسان القدرة على التكيف. التكيف مع الظروف الطارئة والعوامل البيئية المحيطة. وقدرة التكيف في الوسط هذه هي بحد ذاتها خاصية مكتسبة في الكائن البشري، تفوق ((الضرورة)) نفسها وتتجاوزها. وذلك بوساطة ما يولده الخيال في الذهن من حدس ((للممكن)).

والحدس هذا يتفق أو يتلاءم في طبيعته، سنة التطور والتجديد السائدة في الوجود، ومن هذا القبيل جاءت موضوعة ((الاكتساب في التربية)) معمولاً بها ومركزاً عليها في أساليبها ووسائلها لتنفيذ منها إلى المجتمع. وحتى إلى علم الحياة ((البيولوجيا)) وتدل الدراسات العلمية الحديثة، على أن سلوك المخلوقات المكتسب يتزايد على حساب سلوكها الموروث، كلما ارتفعت في سلم التطور.

أي أن السلوك الموروث يكون في تناقص مستمر مع التطور. وبالطبع قدرة (الاكتساب أو التكيف) هذه، هي التي يعود فضلها إلى الخيال، أصبحت في العصر الحاضر الهاجس الكبير للتربية. فراحت

مؤسساتها في العالم أجمع تهتم أكثر فأكثر بعالم الطفولة القريب من ((عالم الخيال)). فركزت على مرحلتها، وعملت على تحديد عمرها من أجل أن تجعلها مرحلة سعيدة في عمر الفرد والمجتمع. وخصبة أيضاً لتفتح المواهب الذاتية، وتقوي روح الشخصية الفردية ليكون الفرد فعالاً أصيلاً في مجتمعه، ويكون هذا المجتمع قوياً وفعالاً بأفراده، زخماً زاخراً بعبائمه. والطفولة من جانبها هي الميدان الفسيح للخيال. ففيها سيقم الخيال مهرجاناته البديعة للعب. حيث ينمي الأطفال فيها شخصياتهم، يتدربون على حيواتهم القادمة. وهنا يبرز دور الخيال جلياً في تكوين المثل العليا للحياة وتزيين هذه المثل بأجمل الصور وأكمل المعاني، التي تنشد إليها وتسعى من أجل تحقيقها. والتربية تدعم هذا الاتجاه بوسائلها الناجعة، وتربط ما بين ((المثل الأعلى)) والواقع، بمزاوجة ثروة خصبة تدفع الفرد ليزاوج ما بين صبوته وطموحه إلى القيم والمثل وما بين الواقع. وإذا ما تجاوزنا - في العمر - مرحلة الطفولة الممرعة اللصيقة بالخيال ، ودخلنا إلى مرحلة النضوج - مرحلة العلم والعقل - فنرى للخيال الدور الهام أيضاً. وذلك عن طريق ((الحدس)) فالحدس هذا النوع الراقى والمتقدم من ملكة الخيال لدى الفرد، والذي فرض نفسه

كموضوعة تربوية في المناهج المدرسية والعمليات الفكرية، أصبح اليوم مطروحاً كموضوعة أساسية في الساحة العلمية وبوساطته صرنا نرى تراخياً وتساهلاً. بل مرونة في تعاملنا مع المبادئ العلمية المبنية على الجبرية والحتمية القانونية.

وحصل انفراج في تحديداتها وشروطها. الأمر الذي ساعد على ترويج مفاهيم ((النسبية)) وربط الإنسان بالكون بمتصل كوني أو وعي كوني.

فراح العلماء يتخيلون في الحدس العلمي كما يفكرون في التجارب الوضعية، ويستنبطون الحقائق والمعارف العلمية الحديثة على ضوءه. والحدس هذا، بوصفه شكلاً من أشكال المعرفة أو بالأحرى من وسائلها وأدواتها، أصبح يتقدم ويتطور في وظيفته ومساهمته حتى أصبح في هذه المكانة الهامة في العصر الحاضر، من التربية والمعرفة والاكتشاف.

ولنصغ إلى ((لويس دوبرويل)) صاحب النظرية المشهورة في الميكانيك التموجي - (الكوانتا) - التي تضارع نظرية ((أينشتاين)) في النسبية، يقول: ((الرموز الرياضية الشيء الوحيد الذي يعبر بدقة عن العلاقات بين ظواهر الطبيعة. ولكن يجب ألا تمتص هذه الحتمية المنطقية الطبيعة الحدسية الفيزيائية.. فالحدس والخيال هما وحدهما يقدران

على تحطيم هذا الإطار - آلية الأسباب والنتائج
للشكائية.. الرياضية)). (2)

ويتابع دوبرويل نفسه: ((فالخيال يساعد على تمثيل
جزء من الطبيعة الفيزيائية بلمحة واحدة. وعن
طريق صورة تبرز بوضوح معالم ارتباط ذلك
الجزء. والحدس يجعلنا نتنبأ بجانب من الواقع فجأة
وبنوع من الاستبصار الباطني، هاتان الموهبتان
"الحدس والخيال"، إكمانيتان تخصصان العقل
البشري بشكل خاص وقد لعبتا وتلعبان دوراً
أساسياً في تشييد صرح العلم)). (3)

ونراه يستطرد أيضاً: ((الاستقراء القائم على
الخيال والحدس، هو وحده الذي يفسح المجال
لانتصارات الفكر الكبرى لأنه يحطم بقفزات لا
عقالية.. تلك الحلقة الصلبة التي يكبلنا بها التفكير
الاستنباطي - المنطقي)). (4)

وبهذه الميزة الاستقرائية التي تعود بأصلها إلى
الخيال والحدس يسمو الفكر الإنساني على كل
الآلات الصماء: ((لأن الفكر الإنساني يسمو -
بالاستقراء - على كل الآلات نهائياً، التي تفوقه في
الحساب والتصنيف إلا أنها لا تستطيع أن تتخيل
وتحدس)). (5)

إذن تفوق عليها الفكر الإنساني بالخيال والحدس.
يقول هربرت ماركيز:

((فالحدس ليس ملكة غامضة من ملكات الفكر ولا تجربة غريبة، وليس مفصلاً عن التحليل المفهومي. بل هو النتيجة الأولى لهذا التحليل)).
(6)

حتى ((الينين)) يؤكد في (دفاعه الفلسفية) هذه المقولة، فيقول: ((فلا يعقل إنكار دور الخيال في أكثر العلوم صرامة)). وهكذا نرى الخيال قد دخل عالم المعرفة وأصبح يعالج موضوع الفكر - في الخيال - بصيغة احتمالية أو تناحيرية على حد تعبير هربرت ماركيز نفسه: ((يظهر موضوع الفكر فيه (في الخيال - الحدس) كأنه كائن فعلاً، أو كأنه على صلة تناحيرية بوضعه الاحتمالي المباشر)). (7)

ونرى هذا المفهوم الاحتمالي - الخيالي الحدسي - يتفق مع منهج التربية الأصلية، التي تعتمد بموجبه على انفتاح التعليم في نفس الفرد وعلى ترسيخ قابلية التعليم لا التعلم ذاته. وذلك وفقاً لهذه المقولة القديمة الحديثة التي قالها (جان جاك روسو) منذ قرنين: ((إننا لا نريد أن نخلق إنساناً متعلماً ولكننا نريد أن نخلق إنساناً قابلاً للتعليم)) وهذا المفهوم الراجح في التربية الحديثة اليوم، يجعلها تركز على احترام الإنسان وإعطائه الحرية لاستعمال قدراته ومواهبه وملكاته نفسه كافة.

قال قديماً ((سنيكا)) الروماني: لسنا أمام قرينة
نملؤها - ويعني الإنسان - وإنما أمام موقد ، علينا
أن نلهبه).

وهكذا تصبح التربية أداة بيد الفرد، لا الفرد أداة
بيدها. وطبعاً البون شاسع بين المبدئين.

وبهذا الأسلوب التربوي، تصبح المعارف بيد
الإنسان، لا الإنسان بيد المعارف. كل ذلك وفق
مبدأ ((الاحتمال)) الذي زودنا به الخيال وحده
الفعال، وأورث فينا هذا التقدم العصري العجيب.

الحواشي:

- (1) كتاب المنعطف الكبير ص 7 لـ ((روجيه غارودي)).
- (2) كتاب لويس دوبرويل و الميكابيك التموجي ص ن
للكاتبة (ماري 010 توتيل).
- (3) المصدر الذي قبله ص 51
- (4) المصدر الذي قبله ص 51
- (5) المصدر الذي قبله ص 5
- (6) كتاب الإنسان ذو البعد الواحد ص 100 لـ ((هيربرت
ماركيوز))
- (7) كتاب الإنسان ذو البعد الواحد ص 151 لـ ((هيربرت
ماركيوز))

التربية بين التطبيق العملي والتنظير المبدئي

مما لا شك فيه أن التربية هي صناعة كل الصناعات، وعلم كل العلوم، فالذين يعملون في كل الحرف والمهن، وفي جميع مجالات الحياة المختلفة، لا بد أنهم عبروا الدنيا من بوابة التربية الكبيرة العريضة، فهي تدخل في كل شيء، ولها طرف في كل علم، لهذا نجدها تأخذ اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين والمختصين. حتى أصبحت علماً قائماً بذاته، له مقوماته الأساسية وأصوله المستقلة الخاصة.

ونظراً لطبيعة العمل التربوي، نرى أن هذا العلم قد اتسع وتطور، فتعددت فيه المذاهب وتشعبت الآراء، وكثرت الطرق، وتنافست المدارس، وسائر الوسائل المتبعة في التطبيق، حتى غدت التربية كالبحر المتموج، الزاخر بالكنوز الثمينة، يتهيب الواقف أمامه من الغوص في لجج مياهه للحصول عليها، لهذا ليس من السهولة بمكان القيام بدراسة التربية والخوض في معركتها، وهي معروفة من الدراسات الصعبة الشاقة لدى المطلعين، وهل هناك صناعة أصعب من صناعة الإنسان؟؟..

لذا يتوجب علينا أن نعتز بالفضل والجميل لكثير من المغامرين الأشداء الذين جردوا أنفسهم لخوض بحر التربية المتلاطم. وسبروا أعماقه، ونجحوا في الكشف عن لآئله. وأتحفونا بها.

فقدموها لنا كزاد سمين قيم من الدراسات والبحوث، التي تعالج مختلف جوانب الحياة، وقضايا الإنسان التربوية. وهناك سجل حافل بأسماء الباحثين والدارسين والرواد المربين الأوائل...

وعلى كل، مهما يكن من أمر، في تعدد المفاهيم والوسائل التربوية فتبقى كلها تنطلق بجوهرها من مبدئين اثنين هامين، هما: المبدأ الفلسفي ((النظري)) والمبدأ العملي ((التطبيقي)) وهذان المظهران متصلان ومتلازمان تلازماً وثيقاً بفعل قاعدة علمية جدلية، فالتواتر موجود بتفاعله المتبادل بين المثال والواقع، بل بين كل نقيضين من أشياء هذا العالم المادية والمعنوية، الواقعية والنظرية العلمية والفكرية، لأن الحياة والأشياء لا تعيش ولا تعرف الكينونة إلا في هذه الثنائية المتفاعلة المتكاملة الخلاقة.

إذن، فالطرق والوسائل العملية تتطلب مبادئ عامة نظرية أي لا بد لها من منطلقات تنظير. أو خلفية فلسفية، ومن هنا وجب الاهتمام بالذات

التربوي الموروث عن الأجيال السابقة لنضعه على مشرحة الدرس والبحث، فننتقي منه مجموعة الصيغ والمقولات النظرية لتكون أساساً لتكوين وسائل تقنية تطبيقية تربوية، أي أن نطعمها بمفاهيم جديدة مستمدة من روح العصر الحاضر، ومن معطيات الواقع التربوي المتطور بتطور الواقع الحضاري.

وننفي، في الوقت نفسه، من هذا التراث المتناقل، كل تقليد أعمى، بل نلاحظ فيه دوماً صيغ التغيير والتجديد، على ضوء المردود الناتج عن التطبيق العملي. والاحتكاك بالواقع المادي ومعطيات الوسائل التكنولوجية الحديثة، التي هي سمة كبرى من سمات عصرنا هذا.

وهذه القاعدة يجب أن تطبق في التربية بحزم وصرامة. فمثلاً يجب ألا نسلم فوراً مع من ينادي بمذهب التعليم الحر. أو نوافق أصحاب مدرسة التعليم الممنطق، الذي يقوم على نقاط مبدئية في التعليم يرسلها المعلم إلى تلاميذه، على شكل خطب جوفاء أو كمعادلات رياضية جامدة لا تعيش إلا في تجريد العقل وحده أو تكون مع ما يعرف بالتعليم السلطوي الذي يعتمد على طرف واحد في المعادلة التربوية، ويتبع أسلوب تخزين المعلومات في ذهن الطلاب بالقوة، ويجعلهم بعيدين عن الواقع الذي

يعيشون فيه. فحتماً هذا الأسلوب يमित لديهم كل ما ينبعث في نفوسهم من ملاحظات خلاقة، ومشاهدات حية مستمدة من البيئة والوسط المحيطين. فالطالب ينصرف لجهود ذهنية مرهفة تجعل المعلومات والمعارف المخزنة كفسيفساء فكرية محفوظة في متحف.

أجل، يجب أن نبتعد في التربية عن كل الوسائل التي تجعل معرفة المحصلات مشبعة كاملة، ولا نكتفي إلا بنثر من المعلومات والمعارف الخفيفة اللطيفة المستمدة غالباً من عمليات طرح الأسئلة على الواقع المعيش، ومن الأمثلة المستقاة، وتزويد الوقائع الدراسية التعليمية بها. وهذا طبعاً لا يكون إلا بإشاعة روح الحرية والديمقراطية في مجالات التربية. واعتماد المنافسة الجماعية البريئة المثمرة بين الطلاب، من خلال الممارسة، وجعل وسائل التعليم حية مرحة سهلة على الجانبين المفيد والمستفيد، وإقامة علاقات حوار بناءة بين المعلم والطالب. تجعل هذا الأخير مشدوداً لدروسه، ويشارك فيها مشاركة فعالية عملية، لا تقل عن مشاركة المعلم نفسه، وحتماً هذه المشاركة الفعالة تجعل الطالب يشعر بروح المسؤولية والطمأنينة معاً. وهنا نتمكن أن نحرك لديه عاملاً هاماً، وهو العامل النفسي))

السيكولوجي)) حيث تشيع فيه الحيوية والفرح، ويندفع أكثر في اتجاه الأغراض التربوية المنشودة وبناء الشخصية الإنسانية المستقبلية. وبعد طرح المعلومات التي حصلت من قبل المعلم والطلاب معاً، في الدرس. يجب ألا ننسى التطبيقات العملية لها ويقوم بها أولاً المعلم نفسه، فالتربية الصحيحة تفرض على المربي أن يطبق بنفسه ما يطلبه من تلاميذه، فيقول المربي المعروف ((مونتيني)) في هذا الصدد ((أجر أمام التلميذ تستطع أن تحكم في قدرته على الجري، وتقدر في نقطة من الشوط ما يجب أن تتقصر من قدرتك على الجري لتتعود مماشاة تلميذك)).

وهناك عامل تربوي هام أيضاً يجب التنويه به، في هذا المضمار وهو ضرورة دعوة الحواس للمشاركة في التطبيق التربوي واستخدامها كوسيلة ناجحة لذلك. ولا سيما إشغالها في المراحل التعليمية الأولى.

هذا إلى جانب استخدام بقية الروافد العملية الأخرى فيما بعد. وأخص بالذكر منها الاستفادة من كتب المطالعة. وتعتبر هذه الوسيلة الناجحة من أرقى وسائل التربية العصرية. أثبتت التجربة فائدتها وفعاليتها في توسيع مدارك الطلاب. وتعبئتهم وترسيخ المعلومات المطلوبة في أذهانهم،

فالطالب يقبل على كتاب المطالعة بملء رغبته وحريته كأنه يقبل بشغف لسماع معزوفة موسيقية يحبها. فالإدمان على المطالعة والإقبال على الكتب الجيدة يعتبران من الوسائل التربوية الفعالة. يقول المربي الباحثة ((غاستون ميالاريه)) بهذا الخصوص ((المعلم الذي لا يعود تلامذته، كيف يستعملون الكتب بذكاء وإدراك، والذي لا يوصيهم بصحبة مكتبات المطالعة، فهو معلم يوشك على الإفلاس مريباً)).

وفي الأخير يجب ألا نغفل فائدة استعمال وسائل الإيضاح المتطورة التي تعتمد على الآلات التكنولوجية التربوية الحديثة، ولكن يجب أن نستعملها بالقدر المعتدل حتى لا نقع في طغيان (مطبّ) آلية الآلة على إنسانية التربية، وتجعل التربية نفسها محض وسيلة ميكانيكية صماء. مثل آلة الكمبيوتر التي تستوعب المعلومات دون أن تفقهها، فالتربية خلقت من أجل الإنسان، ويجب أن تبقى للإنسان...

حول تطور تعليم المرأة في سورية

إنه لمن المعروف في التاريخ، إن المرأة قد حازت على مكانة سامية، في المجتمع العربي، منذ القديم، لا تقل عن مكانة الرجل فيه، في بعض الحقب. ففي العصور الجاهلية تغنى بالمرأة الشعراء، وتكنى بها الأبطال، وانتسب إليها الأمراء والملوك. وفي العصر الإسلامي يكفي أن نشير إلى ما جاء في القرآن الكريم، والحديث الشريف، عن إنصاف المرأة وحفظ حقوقها، ومنحها كل الفرص لممارسة دورها في المجتمع، وتحمل مسؤوليتها وأداء رسالتها فيه. يكفي ذلك أن نشير إليه، ليكون وضع المرأة العربية قدوة لجميع الأمم والمجتمعات في العالم.

ومن ثم تتالت العهود، وحلت النكبات على الأمة العربية، وتصدت المرأة كالرجل، لكل التحديات، التي طرأت، وفي العصر الحديث قامت المرأة تساعد الرجل في الكفاح والنضال من أجل تحرير الأراضي العربية، وتساعد في العمل والإنتاج، وتؤدي واجباتها تجاه الأسرة وتربية الأولاد.

وفي أثناء الاحتلال العثماني ساد الوطن العربي النظام الإقطاعي، الذي جاء به هذا الحكم، وتمركز

بصورة خاصة في القطر العربي السوري. فساد في مجتمعنا السوري التخلف والجهل، ولا سيما في الريف، ولقد أصابت ويلات الحكم العثماني ومحن نظامه الإقطاعي، المرأة بصورة خاصة ما أصابت. ونالت منه ما نالت من المعاناة والتقهقر ومع هذا تحلت بالصبر وامتازت بالجلد وقوة الإرادة.

وظلت في عهد الانتداب الفرنسي على وضعها، لأن الاستعمار واحد، وكعاداته، لا يريد أن تبقى الشعوب الخاضعة له إلا غارقة في الأمية والجهل والتخلف، وزاد الطين بلة، في أمر المرأة السورية، أن العادات والتقاليد والفقر السائدة ساعدت كل هذه العوامل على عدم تشجيع تعليم المرأة، وإفساح المجال أمامها لتعليمها وتثقيفها. وبعد الاستقلال الوطني، تحسنت أحوال المرأة نسبياً، وازدادت أعداد المتعلمين من الذكور والمتعلمات من الإناث، ففي آخر عام للانتداب، وهو العام الدراسي (1944-1945). كان الموقف الإحصائي للتعليم كما يلي:

بلغ عدد الطلاب والطالبات العام (85540). من هذا العدد / 21785 / طالبة والباقي، هم من الذكور. فتكون نسبة الإناث للذكور، في التعليم، تساوي (25.4%) هذا عدا طلاب وطالبات

المدارس الخاصة والأهلية، التي كانت موجودة آنذاك، والتي لم تدخل ضمن الإحصاءات الرسمية. كما تقول السيدة نبيلة الرزاز، في كتابها الوثائقي الهام المسمى ((مشاركة المرأة في الحياة العامة في سورية)).

وكانت النسبة الكبيرة من الطالبات تتمركز في المدن السورية. حيث بلغ عدد طالبات مدارس الإناث فيها / 16879 / طالبة. بينما بلغ عدد طالبات مدارس الإناث في الريف / 4906 / طالبات. وهذا الفارق الكبير بين أرقام المدن وأرقام الريف، يعود إلى أسباب عديدة منها الفقر والجهل المسيطران على الفلاحين - سكان الأرياف - ووجود النظام الإقطاعي في المجتمع الريفي وما يفرضه من خدمات يقدمها الفلاحون وبناتهم وزوجاتهم إلى الملاك أصحاب الأراضي والأطيان. وهناك عادة الزواج المبكر للمرأة المتفشية في الريف، بسبب طمع ((الأهل)) بالمهر نظراً لفقرهم. وهناك حرص الجهات الاستعمارية على تقليل المدارس بالريف رغبة في سياسة التجهيل للفلاحين لتؤمن العمال والأقنان لكبار الملاك المرتبطين بها.

هذا ويجب أن نعلم أن معظم الطلاب والطالبات الذين أتينا على ذكر أعدادهم، من المنتسبين

لمرحلة التعليم الابتدائي. حيث لم يبلغ عدد طلاب وطالبات المرحلتين الإعدادية والثانوية من المجموع العام سوى (6047) طالباً وطالبة، وأما عدد الطالبات في هاتين المرحلتين - الإعدادية والثانوية - فقد بلغ / 1490 / طالبة فقط. منهن / 815 / طالبة في المرحلة الثانوية في كل القطر. وأما في الجامعة، فقد بلغ عدد الطالبات المنتسبات إليها إحدى عشرة طالبة منهن ثلاث طالبات في كلية الطب، وثمانى طالبات في كلية الحقوق. غير أنه اختلفت الحال، نسبياً، في العهد الوطني، حيث تقدم التعليم فيه، بصورة عامة، فازداد عدد المدارس، وصدر قانون التعليم الإلزامي للجنسين. ولكن ظلت المرأة تخضع للضغوط الاجتماعية الموروثة من النظام الإقطاعي، والتقاليد القديمة. وبقيت الأمية تسيطر على أعداد النساء الهائلة، ولا سيما في الريف. وما كان قانون التعليم الإلزامي إلا حبراً على ورق، وظل عامل التمييز في التعليم بين الذكر والأنثى، يلعب دوره، عملاً بالقاعدة المتبعة في بلدان العالم الثالث، الذي يصل في بعضها إلى نسبة (1/3) بين الأنثى والذكر، رغم ما بذلته منظمة اليونسكو من جهود للتقليل من فروق هذا التمييز، ورغم ما جاء في بيان حقوق الإنسان، بأن التعليم هو حق لكل إنسان.

واستمرت المرأة في القطر العربي السوري تعاني في وضعها التعليمي، من هذه الآثار المتخلفة، في عهد الاستقلال، حوالي عشرين سنة. ولكن يعد تفجير ثورة الثامن من آذار، التي فجرها حزب البعث العربي الاشتراكي وجماهير الشعب الكادحة. تطور هذا الوضع لصالح المرأة، وازداد عدد المتعلمات، وارتفعت أرقام النسب بين الجنسين. فركز الحزب على معاملة المرأة كالرجل سواء بسواء. واعتبرها عنصراً فعالاً وإيجابياً في المجتمع العربي. فأزال كل آثار الاستلاب والأنظمة الاستغلالية التسلطية السابقة التي كانت سائدة، وأعاد إلى الإنسان العربي، ككل، - المرأة والرجل معاً - جوهره ومعناه الأصليين. جاء في المنطلقات النظرية الصادرة عن المؤتمر القومي السادس للحزب عام 1963/، مايلي: ((نريد للمواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة)).

ومن هنا قام الحزب بالنهوض بالمرأة التي تشكل نصف المجتمع، وفسح المجال أمامها للمشاركة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي مرحلة التحويل الاشتراكي. وفتح الباب لها واسعاً لأن تتعلم وتسهم في تربية الجيل العربي الجديد، في البيت والمدرسة، وتغرس فيه الإيمان والروح

القومية والاشتراكية. وبالتالي تعمل على بناء حضارة عربية ودولة عربية واحدة ذات مجتمع اشتراكي موحد. فجاء في المنطلقات نفسها (أن الحزب والسلطة الثورية يجب أن يعمل على مكافحة العقالية السلبية تجاه المرأة، وأن يعمل لتصفية آثار الأفكار الرجعية، وإن يحول هذا الكفاح إلى أسلوب عملي تطبيقي يتيح لها الإسهام الفعّال في الحياة العامة وفي النضال. هذا الإسهام الفعلي هو الذي يرفع كل القيود التي تمنع تطور المرأة، وتفتح شخصيتها الإنسانية إلا أن الحزب والسلطة الثورية مطالبان في نفس الوقت، بالوقوف في وجه المفاهيم السطحية الشكلية، البورجوازية لتحرير المرأة، المناهضة للجوانب الإيجابية في التقاليد العربية، والمعركة في الوقت نفسه لقضية البناء الاشتراكي)).

وعلى الصعيد الواقعي - العلمي. نرى أنه بعد أن حكم الحزب، تطور وضع المرأة التعليمي، وزاد وعي المواطنين، وتضاءلت التقاليد الجامدة، التي تحد من تعليم المرأة بصورة خاصة، وصار كل أب يرسل بناته إلى المدارس سواء أكانت في قريته أو في المدينة المجاورة ولا سيما بعد أن عملت الثورة على تقدم طرق المواصلات وتسهيلها، وعلى إدخال المكننة إلى الريف و ((

تأليل)) الزراعة فيه. وهكذا أصبح للمرأة وقت للانصراف إلى المدارس ولتلقّي التعليم فيها. فازدادت نسبة تعليم المرأة بصورة ملحوظة. فمثلاً كان الموقف الإحصائي العام في أوائل العهد الوطني. في العام الدراسي (1949 - 1950)، يشير إلى أن مجموع الطالبات في القطر (65995) طالبة. وفي أواسط العهد الوطني. أي في العام الدراسي (1954 - 1955) أصبح المجموع العام للطالبات (109871) طالبة، وفي أواخر هذا العهد، في عام (1961 - 1962) بلغ مجموعهن (121532) طالبة. أما في أوائل عهد الحزب، في العام الدراسي (1964 - 1965) ارتفع مجموع الطالبات إلى (206911) طالبة، ثم وصل في العام الدراسي (1969 - 1970) إلى (296747) طالبة. وفي العام (1973 - 1974) ن صعد الرقم إلى (452742) طالبة. ونجد أن فروق النسب بين الجنسين في التعليم قد ذابت تقريباً. كما نلاحظ أن نسبة تعليم المرأة الريفية قد ازدادت. فكانت نسبة تعليم المرأة في الريف عام 1945 هي 20.3% وصلت في عام 1964 إلى 44.5%، وفي عام 1971 بلغت 46.4%.

ملاحظة: استقيت الأرقام الإحصائية من كتاب
السيدة نبيلة الرزاز المشار إليه في المقال، ومن
إحصاءات مديرية التخطيط والمتابعة والإحصاء
في وزارة التربية التي قام بإعدادها الأستاذ محمد
عبد الله.

الفن في رسالته التربوية الاجتماعية

اعتقد جازماً أن كلمة "الفن للفن" أصبحت، في هذه الأيام في عداد الكلمات المحنطة مع مخلفات اللغة التي لا دور لها في الحياة العملية "الواقعية" البتة. إنما ينحصر وجودها كدليل لتاريخ تطور معاني الكلمات، وتوضيح التغيير الذي يطرأ على عموم المداليل والمفاهيم، عبر مراحل الزمن لهذا خسر "كروتشه" الرهان في مفهومه عن الفن عندما قال: ((إن الفن يقصد ذاته في ذاته. لا يخضع لأي من القيم الأخلاقية أو الاجتماعية السائدة)).

واعتقد جازماً أيضاً، أن الفن، هو للمجتمع، للشعب، للحياة، هذا هو المفهوم الصحيح الذي يدل عن حقيقة وجود الفن، في مضمونه وشكله، في غايته وهدفه، في رسالته وخدمته، قال غوستاف كوربيه: ((لم يكن هدفي الوصول إلى أن الفن للفن أبداً.. كلا.. ولا أن أكون فناناً مصوراً فقط، إنما إنسان.. وبكلمة واحدة أن أعمل فناً حياً.. هكذا كان هدفي)).

إذن الفن لا ينفصل عن الواقع، وله دور أساسي في بنائه وتطويره، والفنان الحق هو ابن أمته، الذي يستمد فنه من ميدان حياتها التاريخية والاجتماعية

والثقافية والمادية. ويصوغه لها بنفسه الشفافة،
وشعوره المرهف، وريشته المبدعة الخلاقة،
فيسكب قضايا الحياة، ومفاهيم الوجود، ومعاني
القيم والأخلاق، والسلوك والتربية، وسائر
التطلعات المنشودة في الرقي والتقدم. (يسكبها
نوباً من روحه وعصراً من وجدانه)، عرائس
خيال مبدعة، وآيات جمال رائعة. لوحات يصور
في ألوانها وأضوائها وأصباغها، وكتل مادتها،
الهموم وجبال المتاعب في أمته، كأنها زائلة، بفعل
الإنسان وتفاؤله العظيم مجسداً فيها دأبه العنيد، في
تحدي الصعاب، وقهر المستحيل، واستعذاب
الصراع في الحياة. في الوجود.

فالفنان الحق هو الذي يكرس في فنه حب هذا
القانون التاريخي الخالد.. قانون صراع الثنائية،
الذي انبثق عنه ذلك المبدأ الجدلي (الديالكتيكي).
وما تمخض عنه من ميكانيكية في تغيير وتحويل
تركيبات المجتمع وتطورات الحياة وسيرورة الكون
والمادة معاً قال ببير فرانكاستل:

((في الفن واحدة من لحظات خلق الإنسان خلقاً
مستمراً لذاته. خلقاً لواقع جديد ولقيم جديدة. لذا
يرفض أن تكون وظيفة الفن مسخاً لواقع سابق
الوجود.. بل لحظة جدلية ضرورية في بنية
المجتمع البشري، وهو يصوغ صفحة وجهه)).

فالفنان مقم بالضرورة في هذا المعترك. والفن الذي ينتج عنه رسالة اجتماعية تربوية تؤدي غايتها من أجل الحياة والمجتمع، لا بد أن تكون بالطبع متشعبة واسعة الأرجاء تدخل في سائر صنوف الحضارة البشرية. لهذا نرى من خلالها فعالية الفن وقوة إيجابيته، ووفرة مردوده وأثره في كل ما ولجه الإنسان وطرق بابه، سواء أكان في الطبيعة أو الفكر، في العقل أو الخيال، في النفس أو الروح الخ. قال أرسطو قديماً: ((وما الفن إلا بعض ملكة إنتاجية يوجهها العقل الحق)). قال هيجل حديثاً: ((بالفن أحرز الإنسان أول انتصار على المادة، قبل أن ينتصر عليها انتصاراً كلياً بالعلم)). وأما (هوبسمان) فقد قال: ((إذا صح أن العلم هو اكتشاف نظام كوني عام، وضروري بوساطة القياس. فما الفن، هذا الإنسان المضاف إلى الطبيعة هذا التسامي بالواقعية اليومية، إلا اقتلاعاً من المادية إلى الخارج..)).

فالفن هو بجوهره اكتشاف وجهد وفكر، إلى جانب كونه إبداعاً وخلقاً وخيراً وجمالاً. فهو يجمع بين وحدة الفكر والطبيعة، كما يقول شبلنغ الألماني؛ وهو يجمع بين وحدة الخيال والعقل. ففيه نتذكر مثلنا ونتصور نماذجنا وانسجامنا، وفيه نكتشف السمو الكامن في أعماق وجودنا، وهو كل

الكمالات المشفوعة بها قوانا الروحية والنفسية والجسدية - المادية - . إنه بمثابة المركز الهندسي لجميع القيم التي يهدف بها الإنسان نحو الخير والجمال والحق.

وبهذا المفهوم المشبع بالسمو والتجريد والعمل والعاطفة يمثل الفن، كما أسلفت، مكانته الاجتماعية في الأمة. ويأخذ قسطه الأوفى في رسالة التربية فيها.

فهو أفضل الأدوات التي يتربى (يتعلم) الإنسان بواسطتها كيف يضاف إلى الطبيعة وكيف تصبح هذه الطبيعة امتداداً له، ويقلب جفافها ووحشيتها إلى حضارة ورقة وجمال. ويجعل الحياة، بالتالي فيها، تمور بالتطور والخلق والابتكار. قال غوته: ((على الفنان أن يؤسس في الطبيعة ملكوته الخاص به خالقاً منها طبيعة ثانية)).

ولا يغرب عن بالنا أن السمو الفني ليس عبارة عن لذات وعواطف فحسب. بل أنه جهد نفسي وفكري وعقلي معاً. قال تولستوي: ((ليس الفن متاعاً، أو لذة، أو ألهية. بل الفن عضو حياتي في الإنسانية ينقل إلى حقل العاطفة إدراكات العقل)).

وقال هربرت ماركيز أيضاً: ((حقيقة الفن تقوم على تحرر الحساسية في إعادة توافقها مع العقل)).

و أما جوانب التذوق فيه - في الفن - جوانب
العواطف لا تكون كما هي عليه في الطبيعة. بل
تكون دوماً مشفوعة بجوانب الجمال ومصعدة
بقيمه العالية السامية التي تطرد كل المشاغل
النزوية من ساحها. وتعلو على كل الطبائع
الحيوانية في الإنسان. فمن نافذة الجمال هذه تمكن
الفن أن يصبح أداة تربوية صالحة في المجتمع،
مثلاً في معالجة قضايا الكبت، وإظهار كل
المشاعر و الأحاسيس المطمورة بالقمع والقسر.
إظهارها بصورة إنسانية راضية. مسلمة بالقيم
النابعة من أغوار النفس الإنسانية وعلى رأسها قيم
الحرية. فالفن أكبر وسيلة لتربية الحرية في نفس
الفرد والمجتمع معاً. وأكبر عامل لنفي كل مظاهر
العبودية والاستلاب في المجتمع. يقول هربرت
ماركيوز نفسه: ((ارتباط الفن بالصورة يعوق
نفي العبودية. وحتى يتحقق نفي الاستلاب ينبغي أن
يظهر الاستلاب عبر الفن بمظهر الواقع الراهن
والتحكم فيه.. فالفن هو حليف الثورة)).

وحتى لا يكون الفن قد قاد الإنسان إلى الحرية
الفردية، التي ينشدها أعداء المجتمع والحياة.
النزاعون إلى التقوق على الذات والاستغراق في
التأمل. المحصور بين عظام الجمجمة وبين أربعة
جدران.. البعيد عن أي نبض في الحياة. وعن أية

معاناة ميدانية في الواقع. لتبقى ((الأنأ)) بنظرهم شامخة في قصرها العاجي الخيالي. كما يقول (كلودبرنار) أحد المتطرفين في هذا المذهب: ((إنما الفن أنا)).

بل ليكون الفن الحقيقي هو الذي يقود الإنسان ليتعامل مع الحرية، ليس بمفهوم هذه ((الأنأ)) المطلقة، بل بمفهوم ((الأنأ - النحن)). فالفن بطبيعته الأصلية ذو طابع اجتماعي بحث وإن كان من صنع إبداع ذاتي. لأن هذا الإبداع الذاتي يعكس العام من النماذج بشكل فردي محسوس. يعكس كل ما يشعر به الناس. ويحول الخفي المبهم عندهم إلى شعور تام واضح. فالفن إذن ناتج عن انعكاسات الصور الواقعية في الطبيعة والحياة والمجتمع. انعكاساتها في عدسة نفس الفنان الشفافة. هذا الإنسان المكثف لمجتمعه المحشود وعياً لواقعه. المصفى من نقاء المناقب والصفات وخلاصة الوجود. فهو الإنسان الفرد - العام، إذا جاز هذا التعبير. المستشرف لزمئه، القابض على دفعة المبادهة في قضايا الحياة بشعور من الحرية المسؤولة.

فن النحت في الحضارة العربية

لا شك أن الأمة العربية، اتصفت منذ نشأتها الأولى، ومنذ أقدم عصورها التاريخية بالحيوية والاستعداد الحضاري، وكل مؤهلات البقاء والاستمرار في الوجود. فعمرت بنايات شامخة في الحضارات القديمة - الحضارات العربية السامية في الشرق الأدنى - استمدت منها سائر الحضارات الكلاسيكية (كاليونانية والرومانية) الشيء الكثير.

ثم تمخضت هذه الأمة، من خلال تقدمها وسير تاريخها، وبعد اعتلاج عوامل الحضارة فيها، واختمار عناصر المدنية والإنسانية، تمخضت عن عطاء سام في الروح والاجتماع والفكر والثقافة . وأصبحت كمائدتة الوحيدة، تقف أمامها مدنيات وحضارات الدنيا، طوال ستة قرون أو أكثر.

ولا ريب أن هذه الحضارة، قد أدت وظيفتها كاملة في المجتمع البشري، وتجاه الإنسانية، من حيث إرضاء الرغبات العقلية والفكرية والجمالية (الفنية)، عند الإنسان وكل ما يصبو إليه من حب في المعرفة، وتعمق في حقيقة هذا الوجود (الطبيعة والإنسان معاً)، واكتشاف مجاهله والتمتع بمعطياته الخيرة، فكانت زاخرة متموجة، تمرور بالمعاني

والميول والاتجاهات التي تنطوي عليها النفس في أعماق ثناياها. وحكما الفن يشغل جانباً عظيماً. لكونه يعتبر من بواكير الأعمال الإنسانية الإبداعية التي تدرج الإنسان باستعمالها، في حضارته البدائية الأولى فاستخدمه في ممارساته الطقوسية وفي كثير من حاجات حياته، لهذا لا عجب إذا الحضارة العربية - الإسلامية، تبنت الفن بمعناه السامي الإنساني، إلى جانب ما تبنت من نشاطات الروح والعقل والفكر، وسائر أنواع الثقافة، ودفعت بعجلته أشواطاً إلى الأمام.

وطبعاً، كما هو معروف في تاريخ الفن وتاريخ علم النفس أن الفن أول ما يصدر، يصدر عن الإلهام في النفس الإنسانية فيعبر فيها عن أصدق العواطف والمشاعر التي تتأجج في الكيان البشري. ولكن لا يلبث في وضعه هذا قليلاً حتى يخضع لتدخل العقل الذي لا يحب الفراغ (كالهواء). فينحو به منحى ملتزماً، وتصبح له وظائف اجتماعية وعقائدية، إلى جانب وظائفه الأساسية الجمالية، وما تنطوي عليه من تربية الذوق وصقل الطبع وتهذيبه. وبالتالي التسامي والصعود نحو القيم الخالدة والفناء في فضائلها الأبدية. فهذه سنة تطور الفن، فهو يصدر أولاً عن أسسه المبدعة الأولى في الإنسان، ثم يشارك به العقل مع سائر القوى الروحية والحواس

والجوارح، حتى يكتمل ويتم نضوجه، فيتمكن عندئذ من تأدية رسالته، ويظهر بمميزاته وخصائصه القومية التي تجعله وليد الحاجات والمعتقدات في الأمة. كما هو في الوقت نفسه وليد مشاعرها، ونابع من فيض عواطفها، وهنا نصل بالفن كأنه يمثل الأمة في طابعها الإبداعي المستقل، وميولها الجمالية الذاتية وخصائصها الثقافية.

وفعلاً يشهد تاريخ الفن أن لكل أمة، وحتى لكل عصر خصائص ومميزات فنية ومستمدة من الذوق الخاص بتلك الأمة، أو ذاك العصر، الأمر الذي جعل الإنتاج الفني ممهوراً بالطابع القومي، طابع الأمة التي أنتجته واستلهمته من مخيلتها الخاصة، وبطابع العصر الذي تم ظهوره فيه.

وهذا القول ينطبق، بكل ما جاء فيه، على الفن العربي في التاريخ، أي الفن الذي أنتجته الحضارة العربية، أو الفن الذي أبدعته الأمة العربية، وراح يشارك في إشادة أضخم صرح للحضارة في العالم، وظل شامخاً في زهوره وبهائه رديحاً طويلاً من الزمن.

إلا أن بحث الفن العربي بجميع فروعه، والإلمام بكل أنواعه، في مثل هذه العجالة، أمر صعب، حيث يحتاج هذا العمل إلى جهود كبيرة وكتب

مطولة، لهذا سأقتصر في بحثي الآن على أحد الفروع التشكيلية في الفن العربي، وهو فن النحت.

وبالطبع فإن هذا الفن - فن النحت العربي - ووفق ما تقدم، قد عثر على عوامله الإبداعية الأولى، التي استلهمتها الحضارة العربية الفتية الناهضة، بعد ظهور دفقة نور الإسلام الروحية، في الجزيرة العربية، وتدفق دمها الحار النقي في النفس العربية، وتأجيج كل جوانبها الحيوية النشيطة، فكان هذا الجو المهبوس بالاندفاع الروحي المتقد بالحماسة لأداء الرسالة وبناء الحضارة. من أكبر عوامل الإلهام والإبداع لفن النحت العربي، فكانت العقيدة الجديدة بمنطلقاتها الروحية والاجتماعية، هي العامل الأول في بناء فن النحت العربي، و أما العامل الثاني فكان استلهاه الطبيعة نفسها والاستمداد منها. والعامل الثالث فمن استلهاه الفنون الشرقية القديمة المتواجدة في البيئة المحلية.

أجل إنه لا يستطيع أحد أن ينكر ما لهذه الفنون من آثار في نشوء فن النحت العربي الأول، غير أنه في هذه النقطة بالذات، يجب ألا نغالي كثيراً، كما ذهب المستشرقون ودارسو الفن العربي من الغربيين والمغرضين، حيث يعتبرون فن النحت العربي مجرد اقتباس عن تلك الفنون، فالأمة

العربية، أمة مبدعة بالفطرة، امتازت برقة النفس وخصب الخيال وقوة الإحساس، ورهافة المشاعر. والإنسان العربي هو شاعر مطبوع بالفطرة أيضاً. وهذا كله يعود لخصائص ذاتية، ولفعل البيئة العربية السمحة، ذات السهوب المنبسطة والسماء الصافية، والمناخ الجميل. لذا ما كانت بداءة نهضة الحضارة العربية تنبثق في العصر الإسلامي الأول. حتى كانت الأمة العربية قد طبعت كل ما وضعت يدها عليه من آثار الفنون السابقة بطابعها الخاص. فتفنن النحاتون العرب بأساليب الزخرفة وبرعوا في دقة الجزئيات، حتى دفعوا فن النحت العربي إلى مصافي الرقي، وأصبح في درجة عالية من الروعة والجمال. ملماً بكل العناصر التي جعلته فناً مبدعاً ممدداً للخيال، ملهماً للنفس - كما هي الحال - في فنون النحت العريقة التي استقامت أمورها من قبل، وتمكن العرب بسعة خيالهم وذكاء قلبهم، من حرق مراحل الاقتباس والتمثيل والإبداع بسرعة فائقة. فأنتجوا من نوب روحهم ووهج ذاتهم وحسهم وانفتاح أنفسهم على كل ما هو خالد في مجالات الحق والخير والجمال. أنتجوا عجائب فنية رائعة في النحت تضاهي ما أنتجه اليونان والرومان من عجائب، مزودة بخصائص ومميزات عربية مستقلة، قد بوأت الفن العربي أن يحتل

مكانته العالمية في التاريخ بصورة عامة، وفي تاريخ الفن بصورة خاصة. وأن يتم حلقة هامة في سلسلة تطوره، كانت مفقودة، والحق يقال إنه عندما تقدم العرب أشواطاً بعيدة في الحضارة والرقى، وأسسوا دولتهم، وفتحوا البلاد والأمصار، وأطلعوا على مدنها وثقافات شعوبها. وبنوا المدن والقصور. كان لا بد لهم من استعمال الزينات والزخارف والنقوش المنحوتة للأبنية عندهم، والتي اعتبرت من متممات المباني بالفعل، بل من مستلزماتها الضرورية. فظهرت الزخارف والنقوش على واجهاتها وجدرانها وأبوابها وأعمدتها وهي الآن تحيط بنا في أي موقع أثري عربي نكون فيه، ونشاهدها في أي بناء أو مسجد أو قصر قديم نزره.

لقد ساد في الزخارف والنقوش النحتية الأولى، الرسومات الهندسية التي كانت تتخللها كتابات عربية، وقد استخدم النحاتون العرب، آنذاك، في نحتها قواعد خاصة ثابتة في الفن. وأما طريقة الصنع لها، فكانت إما نقراً بالأزميل على الحجر، وأما صباً في القوالب، ومن الأمثلة على الطريقة الأولى، الزخارف والنقوش الموجودة في جدران معظم مساجد القاهرة، ومن الأمثلة على الطريقة

الثانية، النقوش والتماثيل الموجودة في قصر الحمراء بالأندلس.

وبتقدم فن النحت، بعد غنى تجربته، وتطور أساليب النحاتين العرب فيه، يبرز فيه فن نحتي خاص هو ((فن النقوش الكتابية)). الذي يعتبر بحق، من مبتكرات العرب الخاصة في النحت، وقد عمّت هذه النقوش الكتابية الدور والمساجد على حد سواء. وأصبح بذلك للخط العربي قيمة فنية عظيمة في النقش والزخرفة، حتى فاقت فعلاً سائر أنواع فن النحت في القرن التاسع ميلادي ولا سيما منها نقوش الخط الكوفي، وما أشتق عنه من خطوط، مثل الخط القرمطي، والخط الكوفي القائم الزوايا...

وأما الكلمات أو الجمل التي استعملت في النقوش الكتابية، فكان أكثرها آيات قرآنية، وبالأخص ((البسمة: بسم الله الرحمن الرحيم)) و ((لا إله إلا الله، محمد رسول الله))...

وبعد نضوج تجربة استعمال الخط العربي في فن النحت، ظهرت أنواع أخرى من النحت في البلاد العربية إلى جانبه، وهذا طبعاً تابع لتقدم العرب أكثر في معارج المدنية والحضارة، وإضفاء حياة الرفاه والحبوحة عليهم، فكان لا بد من تزيين القصور الضخمة، وساحات الدور العظيمة بالتماثيل، جريا مع الطابع المادي الحضاري، ومع

العادة المتبعة لدى عظماء الأمم التي دالت بسلطانها لهم، ولهذا السبب عمت التماثيل التي زينّت بها القصور، وتقدم فن نحتها كثيراً، إلا أنه لا نستطيع القول أن تقدم فن التماثيل يوازي، في تلك الحقبة، تقدم فن (النقوش الكتابية) للخط العربي، وذلك لدوافع وأسباب خاصة.

ولكن هذا لم يمنع التفنن في الابتكار والإبداع بنحتها وزخرفتها، الأمر الذي دعا لأن يتخطى اقتناؤها أصحاب القصور والثراء، وتعم الدور وسائر المباني الكبيرة في المدن العربية، ولأن تعنى بها كتب التاريخ والحضارة، فرسمت لنا منها نماذج عديدة وحدثتنا بإسهاب عنها وعن طرائفها.

فقل مثلاً أن بعض أمراء مصر، قد ملأ قصره بتماثيل نسائه. كما كان يوجد في قصر عبد الرحمن الأندلسي لخطيبته تماثيل كثيرة، بالغوا في عدها.

ووجد إلى جانب هذه التماثيل الآدمية، تماثيل حيوانية - للحيوانات القوية الضخمة - وقد زال معظمها في العصر الحاضر. ولم يبق منها إلا ما يمثل حيوانات وهمية كالتي توجد في قاعة الأسود بقصر الحمراء.

وأحب أن أورد هنا هذه الملاحظة في تاريخ فن النحت عند العرب، وهي التماثيل البشرية

والحيوانية قد كثر استعمالها في قصور شمالي أفريقيا والأندلس فقط، بينما نرى استعمالها قد قل في قصور المشرق العربي، علماً أنه يجب ألا ننسى أن قصور هذا القسم الشرقي من الوطن العربي ومنازله ومساجده قد حفلت بروائع من أنواع فن النحت الأخرى، غير التماثيل. هذا ومن القصور العربية الشرقية التي امتازت بنقوشها النحتية، قصر طوبة، وقصر رباط عمان، وقصر الخليفة هشام بن عبد الملك في خربة المعجز في شرق الأردن. وقصر المشتى في بادية الشام، الذي بدئ ببنائه في خلافة الوليد الثاني الأموي عام 127 هجري.

وقد اعتبرت ((منحوتات)) هذه القصور كلها دلالة واضحة على تقدم فن النحت في العصر الأموي. وخاصة منها نقوش وزخارف قصر (المشتى)، الأنف الذكر، الذي ينظر إليه من أعظم الآثار العربية. وأهمها على الإطلاق في ((فن النحت العربي))، وذلك لاتباع النحاتين العرب فيه أسلوباً فريداً بخصائصه ومميزاته، مما حدا بالباحثين لأن يعتبروه نموذجاً كاملاً لفن النحت العربي في ذلك العصر. أو مدرسة مستقلة في النحت، تسمى مدرسة ((أسلوب النحت الأموي)) وهذا لما بلغ به فن النحت العربي من التفرد والاستقلال عن سائر

مدارس النحت المعروفة آنذاك، وخاصة منها ((مدرسة فن النحت السوري المسيحي)) ومدرسة (فن النحت الإيراني الساساني).

وتتجلى فعلاً روعة النحت العربي (الأموي)، في هذا القصر - قصر المشتى - بل في واجهته المنحوتة نحتاً غائراً، والموجودة في متحف برلين، بنكهة فنية عربية عجيبة. تضيء على (مجاوراتها) الأثرية جلالاً وعظمة.

وتقسم واجهة هذا القصر المنحوتة، بزخارفها ونقوشها إلى مجموعتين رئيسيتين: المجموعة الأولى تتألف من المثلثات الموجودة على يسار المدخل، وفيها تبرز رسوم عديدة الأشكال من الطير والحيوان، وصور آدمية كثيرة. وكلها قد صيغت صياغة بارعة في وسط تقريعات من سوق الأعناب.

والمجموعة الثانية تتألف من المثلثات الموجودة على يمين المدخل، ولكن لا أثر في زخارفها للكائنات الحية. وأما سوق العناب، فقد حفرت على طريقة فنية شرقية قديمة. إلا أن نحائنها لم يعتمدوا فيها ((المسطحات)) الحجرية الكبيرة وذلك ليظهروا طريقة الضوء والظل في النحت والزخرفة.

وهكذا ما انتهى العصر الأموي، في الدولة العربية، إلا وكان فن النحت العربي على الحجر والجص والخشب، بنقوشه وتماثيله وتيجان أعمدته، ومحاريب مساجده، قد أصبح فناً أصيلاً له مكانته العريقة في تاريخ الفن العالمي.

وجاء بعده العصر العباسي، فاستلم هذا التراث الثمين كاملاً ناضجاً، إلا أنه بعد تقدمه في الزمن لم يقف فيه عند حد معين، بل دفع بحركة تطوره إلى الأمام. فحصلت فيه زيادات، وطرأت عليه تغيرات وإضافات عديدة. وطبعاً يعود فضل ذلك إلى تقدم الحضارة العربية، وازدهار الحياة وازدياد الثروات، والإقبال على تأسيس المدن الكاملة، وبناء القصور والدور فيها، فلما تأسست مدينة بغداد، ومن ثم مدينة سامراء، وغيرهما من المدن العربية الجديدة، استدعى الخلفاء العباسيون مهرة الفنانين من مختلف البلاد والأقاليم في العالم لتزيين القصور والمساجد والدور والحدائق. فهرع إلى بغداد وسامراء، مثلاً، جهابذة النحاتين والرسامين والعاملين في الأصباغ والألوان والنقوش، وحفر الخشب و الجبس والخزف والبرونز... هرعوا من مدينة الموصل والكوفة واسط، ومن مدن سوريا وإيران الخ....

وكان من الطبيعي، بعد التقاء هذا الخليط من الفن والفنانين، أن تمتزج جميع الاتجاهات الفنية المتواجدة في معمعة العمل، وخاصة منها في أعمال الحفر والنحت، لتكون من تفاعلها الخصب أسلوباً فنياً جديداً مستقلاً. عرف أولاً باسم ((الأسلوب البغدادي)) ثم باسم ((الأسلوب السامرائي)) ثم باسم ((الأسلوب العراقي))، والآن يعرف في التاريخ العام لتصنيف الفن باسم ((الأسلوب العراقي)) أو بالمدرسة العراقية. ومن العراق انتشر هذا الأسلوب في جميع أنحاء الوطن العربي، وبخاصة في مصر، في عهد الطولونيين، إذ ما زالت زخارفه الجصية موجودة إلى الآن، في مسجد أحمد بن طولون، المعروف في مدينة القاهرة.

كما تسرب هذا الأسلوب إلى مختلف أوابد العمارات في المدن، بشتى دول العالم. ولقد طمر الكثير الكثير من الآثار العربية الفنية في العراق. نظراً لطبيعة الأرض والبيئة.. وفي العصر الحديث اكتشفت الحفريات التي أجريت على العديد منها. وأخص بالذكر تلك الحفريات التي قام بها العالمان الأثريان الألمانيان (رزه، وهرتز فيلد) في سامراء فقد عثر هذان العالمان على الكثير من القطع الأثرية النفسية، أهمها تلك الجدران الرئيسة

للغرف، التي ما زالت مدفونة تحت التراب منذ مئات السنين، وكانت قواعدها الأرضية مزينة بحشيات مصنوعة من الجبس المصبوب يبلغ ارتفاعها - 125 - سم، حفرت فيها شتى أنواع الزخارف و النقوش الجميلة. وقد عثر أيضاً على جدران كاملة مملوءة بزخارف ((حفريّة)) رائعة، منها قطع قد صبت بواسطة قوالب منفصلة، ثم ألصقت بها إلصاقاً.

وتتألف معظم الزخارف والنقوش المكتشفة من تفرعات عنبية، أو كيزان صنوبرية، أو مراوح نخلية، أو من أشكال زهريات رائعة، وزعت أجزاءها ضمن تقسيمات هندسية متناسقة، وغالباً ما اعتمد في أسلوبها على الفن الأموي السابق، إلا أنها لا تخلو من تطورات وابتكارات ((عباسية)) جديدة.

هذا وكان أهم المكتشفات الأثرية التي تدل دلالة واضحة على فن النحت العباسي، هي تلك المجموعة من التيجان المرممية المكتشفة في منطقة وادي الفرات، ما بين الرقة ((الرصافة))، ودير الزور، والمحفوظ قسم كبير منها الآن في متحف (الميثروبوليتان). وقسم آخر في متاحف مدينتي برلين واستنبول.

ويُرى من طريقة نحت هذه التيجان أن فن النحت العباسي فيها قد تجاوز أساليب فن النحت الأموي، القريبة نسبياً منه، وتأثر بأساليب فنون المنطقة، مثل أسلوب الفن السوري، الذي كان سائداً في بلاد الشام، قبل الإسلام. فقد استقى منه الفن العباسي الشيء الكثير في طريقة نحت التيجان، وخاصة اقتباس تلك الزخرفة الشهيرة المعروفة باسم ((الشوكة السورية)). التي طغت على زخارف النحت في ذلك العصر، غير أن الباحث الفني المدقق يكشف ببسر التطورات الجديدة التي أحدثتها يد الفنان العربي، على طريقة نحت التيجان هذه. وأعطتها الصبغة العباسية البحتة. ومن أهم هذه التطورات، هي زخارف ((التوريق))، التي تعتبر بحق من الابتكارات العباسية الجديدة في فن النحت بصورة عامة. حيث لم تكن معروفة، بصورة خاصة في فن النحت الشرقي السوري، وقد وصلت أوجها في القرن الحادي عشر ميلادي، وأهم زخرفة منها هي تلك الزخرفة المعروفة باسم ((المراوح النخيلية)). والتي أصبحت رئيسة في ذلك العهد، وهي عبارة عن أشكال ورقية قد جمعت بهيئة تشكيلات وتفرعات دائرية، أو نصف دائرية. تكون متموجة أو متعرجة، ثم تتخللها زخارف السيقان العديدة، والتي تتفرع منها - بدورها -

مراوح نخلية أخرى. وبعد هذا تتخذ المراوح وأنصافها شكل الفصوص التي تكون إما علوية وهي المحزوزة أو المحفورة. ذات الشكل الدائري، وإما سفلية، وهي التي اتخذت الشكل الحلزوني لشدة التواءاتها.

ومن الابتكارات العباسية الجديدة في فن النحت أيضاً تلك الزخرفة التي راجت كثيراً، مثل زخارف المراوح النخيلية السابقة، وهي التي عرفت في فن النحت باسم ((زخرفة النحت المشطوف)) أو المائل. وقد اعتمد الفنان العربي في صنع هذه الزخرفة على طريقة خاصة بالنحت ((المشطوف - المائل)) الذي تتقابل فيه حوافي العناصر بعضها ببعض بشكل زوايا منفرجة. وقد شاع استعمال هذا اللون من النحت بصورة خاصة في زمن الرشيد. ومن ثم انتشر في مصر وبقية الأقاليم العربية.

وفي نهاية هذا البحث، أقول أن فن النحت العربي، في العصر العباسي، قد تفاعل مع التراث والبيئة في المنطقة العربية، وولد ابتكارات جديدة في فن النحت العام، وتمكن أن يجرد نفسه عن الطبيعة ويكون أشكالاً وزهريات وتفريعات زخرفية. لا يوجد ما يشابهها في الطبيعة، مما جعله عريقاً كاملاً مستقلاً. له قواعده وأصوله ومميزاته. ويعتبر

بحق ركناً من أركان الحضارة العربية التي سادت
العالم في العصر التاريخي العربي.

أهمية ابن بطوطة العلمية في حركة الرحلات العربية

أولاً: ترجمته: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (1)، الطنجي، يكتب بأبي عبد الله، ويلقب بشمس الدين، ويعرف بابن بطوطة. ولد في مدينة طنجة في 17 رجب سنة 702 هـ (1304م). وأقام فيها حتى سنة 725 هـ (1325م). ثم غادرها، وهو في الثانية والعشرين من عمره. وبقي أكثر من سبع وعشرين سنة في أسفار متواصلة، أمضاها في رحلاته التي نذر لها نفسه، واستقر بعد ذلك في مراكش، في بلاط السلطان أبي عنان، من بني مرين، وأملى كتابه المشهور في نفس البلاط سنة 1356م. ثم مات في سنة 1377م. نشأ ابن بطوطة من والدين كريمين وأسرة عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية. فدرس في أول حياته العلوم الدينية، وتعلم الأدب والشعر. فشبّ محافظاً على النواحي الروحية والفرائض الدينية، وكان أهم أخلاقه وصفاته شدة التأثر، وسرعة الانفعال وبقظة الوجدان، والعاطفة القوية. كشأن الأتقياء الورعين. فقد حجّ أربع مرات. وكان تفكيره بالحج هذا، حدثاً هاماً في حياته. إذ دفعه

على حمل عصا الترحال والتجوال، ليخلد اسمه في
ميدان الرحلات.

ثانياً: رحلاته:

قام ابن بطوطة في حياته بثلاث رحلات، أخذت
من عمره مدة سبع وعشرين سنة. استغرق فيها في
الرحلة الأولى أربعاً وعشرين سنة. وكان خط
سيره فيها كما يلي:

غادر مدينة طنجة في شهر حزيران 1325م إلى
شمالي أفريقيا ومصر وبلاد الشام، والحجاز ونجد
ثم عاد إلى الشام ثانية. وطاف بلاد العجم والعراق
وبلاذ ما بين النهرين بكاملها. وبعد أن استجمَّ
استأنف رحلته إلى ساحل أفريقيا الشرقي. ومنه
عاد إلى هرمز مخترقاً القسم الجنوبي من الجزيرة
العربية. وجاب جزر الخليج العربي المشهورة
بمفاجآت اللؤلؤ. ثم رجع منها إلى الحجاز للحج،
وانتقل منها إلى الشام. ومنها إلى الأناضول.
وركب البحر من شواطئها الشمالية إلى شبه جزيرة
القرم. وتجول في روسيا الجنوبية. ثم عاد منها
مرتحلاً إلى مدينة القسطنطينية. ولازم فيها
الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين الرابع) الذي
حكم بين عامي (1344 - 1363) م. ثم رجع إلى
روسيا الجنوبية، وشاهد نهر الفولغا (أتيل). ومن
هذه البلاد تابع سفره إلى شمالي بحر الخزر حتى

وصل بخارى وبلاد (قندهار). ثم واصل سيره منها إلى وادي السند في الهند، وأصبح قاضياً في مدينة دلهي، التي كانت قاعدة للسلطنة الإسلامية الهندية. وبعد ذلك انتقل إلى جزيرة سيلان، وصومطرة وجاوة، حتى دخل بلاد الصين. ثم غادر الشرق الأقصى عائداً إلى الشرق الأوسط، ثم الشرق الأدنى، ليستريح في مسقط رأسه مدينة طنجة. وأقام بعد ذلك في مدينة فاس بالمغرب الأقصى عام 1349م.

وأما رحلته الثانية فقد استغرقت سنة واحدة تقريباً. وطاف فيها بلاد الأندلس، فزار سبتة وجبل طارق وغرناطة ومالطة. ثم رجع إلى مدينة فاس.

ورحلته الثالثة فقد استغرقت سنتين (1352 - 1354م). طاف فيها بلاد السودان وزار تنبكتو، وتكدا، وأوهكار. ثم عاد إلى مدينة فاس بالمغرب.

وقد قدّر بعض العلماء الباحثين أن المسافات التي قطعها ابن بطوطة، في رحلاته الثلاث، بلغت خمسة وسبعين ألف ميل. وهكذا نرى أن هذا الرحالة العربي الكبير قد قسم العالم القديم (المتحضر) في عصره إلى ثلاثة محاور رئيسة، تنطلق من مسقط رأسه في المغرب الأقصى، وزرّع عليها رحلاته الثلاث. فغطى في الرحلة الأولى الوطن العربي في شمالي أفريقيا وآسيا الغربية،

وشرقي أفريقيا، وجنوب شرقي أوروبا، وأواسط قارة آسيا وجنوبها وشرقها. ثم عاد إلى بلاده المغرب. وفي المرحلة الثانية غطى بها جنوب قارة أوروبا التي تعتبر أكثر البلدان الأوروبية حضارة ورقياً. نظراً لاحتلال العرب لها. ثم اخترق في محور رحلته الثالثة أواسط قارة أفريقيا المتحضرة بسبب اتباعها الحكم العربي أيضاً.

ثالثاً - كتاب رحلاته:

بعد أن اعتقد ابن بطوطة أنه أكمل مشاهداته للعالم في رحلاته الثلاث المذكورة، واشبع فيها ما كان يعتلج في نفسه من حب الاطلاع على المجتمعات الإنسانية المعروفة آنذاك. وأنه قهر ما كان يجهله في أحوالها المعيشية والعمرانية (الاجتماعية)، والسياسية والروحية والثقافية وعاداتها وتقاليدها الخ... ألقى عصا ترحاله. واستقر في بلاط سلطان مراکش أبي عنان من بني مرين وهو لديه هذه المحصلة الثمينة من المعرفة. وراح يملئ فيها أخبار رحلاته، بأمر من السلطان نفسه على كاتبه الأديب محمد بن جزي الكابي، في كتاب نفيس قيم، يعتبر من أهم كتب الرحلات في العالم، في ذلك العصر. سمّاه ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)) وقد انتهى من إملائه في شهر صفر من سنة 757هـ (1356 م. وقد كتب ابن

جزى فيه المقدمة والخاتمة، وقام بتقسيمه وتبويبه،
دون التعرض لمادته، قال في المقدمة:
((وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار
ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار)).
رابعاً - الكتاب في الميزان:

نظراً لتباين المجتمعات التي شاهدها ابن بطوطة.
وتعدد الأقاليم والمناطق التي زارها، واختلاف
أجناسها وأقوامها. كانت أخباره ومعلوماته التي
جمعها زخمة فائقة التنوع. مما جعلها بالنسبة
لمواطنيه ول بعض الكتاب القدماء والمحدثين من
العرب، مستهجنة مليئة ((بالغرائب والعجائب)).
فظن كثير منهم به الظنون السيئة. وشكوا بأقواله،
وعزوا كل ما أورده إلى أنه من نسج خياله، وبنات
أفكاره، ليس إلا!؟ وكان من بين الكتاب القدماء
الذين شكوا به، العلامة العربي ابن خلدون، مؤسس
علم العمران (الاجتماع). حيث قال في مقدمته
المشهور: ((وأمثال هذه الحكايات، فتناجي الناس
بتكذيبه)). ومن المحدثين نيقولا زيادة الذي شك
بصورة خاصة في وصوله إلى بلاد الصين. (2)
واستند معظم الشاكرين بابن بطوطة، إلى ذلك
الاضطراب الذي يشاهد أحياناً في تضاعيف
الكتاب. ونسوا أنه حصل بسبب عدم كتابة ابن
بطوطة مؤلفه بنفسه إنما أملاه إملاء.

وبالطبع بعد تقدم الزمن، واتساع العلوم والمعارف الإنسانية، دحضت مزاعم الشك في مضمون كتاب ابن بطوطة. وظهرت فيه شخصيته العلمية الموضوعية. فقد قام العلماء والمستشرقون بإجراء مقارنات بين ما أورده ابن بطوطة عن البلدان التي زارها، وبين ما نقله غيره عنها من متقدميه ومعاصريه، ولاحقه من السياح والرحالة الأجانب. فثبت لديهم صحة أقواله. حيث وجدوا انطباقاً بين أقوال الطرفين.

هذا من جهة. ومن جهة ثانية، إن ابن بطوطة، نظراً لتربيته الأولى، ولما عرف من أنه رجل علم ودين، ولما اتصف به من صفات الصدق والأمانة، والدقة والبساطة. نرى أنه لا يسمح لنفسه بالاختلاق والكذب والغش فيما ذكره في كتاب رحلاته. لهذا يقوم بسرد الحكايات فيه سرداً على السليقة. وإذا ما نسي صاحبها يذكر ذلك بصدق وصراحة ويقول نسيته. وقد أبرز له هذه الملاحظة المستشرق العلامة المعروف (دوزي). حتى أطلق عليه لقب ((الرحالة الأمين)). وهكذا ازداد الباحثون اطمئناناً لكل ما ذكره واعتبروه رجل صدق وثقة وأمانة. وأقبلوا على كتابه واهتموا به، ولم يكن رواجه مقتصراً على الوطن العربي وحضارة العرب وثقافتهم فحسب. بل انتقل إلى

الحضارة الأوروبية الحديثة. واعتنى به علماءها وباحثوها. وترجمه المستشرقون إلى معظم لغاتها. وكانوا حين سمعوا بذكر ابن بطوطة ورحلاته الواسعة الشاملة، قد تداعوا للحصول على كتابه، وبالأحرى على النسخة الأصلية له، وبعد لأي توصلوا إلى مخطوط يتضمن مختصراً له، عن طريق السائح (يوركها ردت). وجاء بعده (كوسفارتن) وترجم منه إلى اللغة اللاتينية، الأسفار الخاصة بأفريقيا والجزائر وفارس وبلاد التتار ونشرها في عام (1881م). ولكن قبله نشر القس (صموئيل لي) في عام (1828م) قسماً من هذه النسخة مترجمة إلى اللغة الانكليزية، ومن طباعة مدينة لندن. ثم قام العالمان الفرنسيان (دي سيلان) و (ادوارد ديلوريه) بترجمة كل منهما، بعض أقسامها، ونشراها في المجلة الآسيوية المعروفة عامي (1843 - 1847م). ولكن ظل العلماء يفكرون في الوصول إلى النسخة الكاملة للكتاب. وبعد بحث وتقص عثر عليها وطبعت في مدينة بارني باللغة الفرنسية بين عامي (1853 - 1859م). في أربعة مجلدات، بتحقيق المستشرقين (دفر يمري) و (سانجونتي). ثم طبعت بعد ذلك باللغة العربية في مدينة القاهرة طبعتين. الأولى في عام 1871م. والثانية في عام 1904م. وطبعت

باللغة الألمانية في مدينة هامبورغ عام (1911 - 1912) م على نفقة المستشرق (مزيك). وترجمت إلى اللغة التركية باسم ((تقويم وقائع)). ثم تسارع العلماء لترجمة وشرح ونشر أجزاء معينة من هذه الرحلة ((الرحلة الزاخرة)) ومن هؤلاء: (كولي، ودفنك، وهج، ودلانس، وماركت، وفراندبول، وكوردبيه). وفي سنة 1929م نشر الأستاذ جيب Gibb (3)، مختصراً جديداً ذا حواشٍ علمية دقيقة باللغة الانكليزية. ثم نشرت وزارة المعارف المصرية في عام 1934م مهذباً لهذه الرحلة، أو الرحلات الثلاث، بجزئين قام بتحقيقه وضبطه الأستاذان أحمد العوامري، ومحمد أحمد جاد المولى.

خامساً - أهمية ابن بطوطة العلمية:

من تقرّي عناصر هذا البحث نستنتج مقدار الأهمية العلمية التي يشغلها ابن بطوطة في حركة الرحلات على الصعيدين العربي والعالمي . فهو الذي دفع بحركتها في اتجاهها العلمي الصحيح. وذلك بما كرّس لها من سلوك جاد مخلص رصين. وبما قدمه من توضّحات وآلام، وبما استغرقه فيها من وقت يفوق عن ربع قرن. لكل ذلك اعتبر نموذجاً رائداً طليعياً في حركة الرحلات، وقمة من قممها العلمية العالمية. أنه ربط

مصيره بها، وقرن حياته بأسفارها، وأحاط بثقافته وعلمه كل ما يلم بها، حتى صار يجسد بشخصه نضج الاختصاص والتخصص، في الحضارة العربية. فكان منذ نشأته الأولى يعتمل في نفسه هاجس كبير لمعرفة بلدان العالم. وراح يهيئ عقله وفكره ومطالعته من أجل تحقيق مطامحه وأحلامه. وهكذا رأيناه يترك مدينة طنجة، وهو في ريعان العمر، ليقوم بأسفاره الطويلة المتواصلة، ويتحمل فيها مشاق التنقل والترحال، ومعاناة التلاوم الاجتماعي في البلدان التي يحل فيها، وتعلم لغات أهلها، ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم. فكان يبذل جهداً عظيماً في ذلك حتى أصبح كشخص منهم وهكذا تمكن في بعض المدن أن يتوصل إلى استلام بعض المناصب فيها. إنه بهذا السلوك يمثل بالحقيقة شخصية العالم الاجتماعي والباحث التاريخي الجغرافي. حيث تستدعي مقتضيات العلم والاختصاص أن يجرد القائم بهما نفسه وسلوكه من حياته السابقة ويتطبع بحياة المجتمع الجديد الذي حلّ به، ليدرسه ويكتب عنه، كما فعل ابن بطوطة.

وعلى كل. بعد أن استكمل ابن بطوطة رحلاته، واستطلع بها العالم المعروف آنذاك. قام وأتحف الحضارة الإنسانية بتحفته الفاخرة، كتابه ((تحفة

النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)).
الذي جاء نموذجاً حياً للكتاب المجتمعة فيه عناصر
البحث العلمي وعوامله، مثل دقة الوصف والبحث
والتقصّي عن الأماكن والأفراد والمجتمعات.
والوقوف عليها شخصياً من قبل مؤلف متحلّ بقوة
إبداع الكاتب وحسّ الناقد السليم، وذكائه النافذ
والمنتصف - إلى جانب ذلك - بصفات الأمانة
والنزاهة والتجرد والابتعاد عن التحيز والتعصب
الطائفي والقبلي والإقليمي... وهكذا أقبل الدارسون
على هذا الكتاب يستفيدون منه ويعتبرونه كتاباً
جامعاً لا يفوقه أي كتاب ألف في العلوم الإنسانية
من كتب التاريخ والجغرافية والاقتصاد والعمران.
نظراً لمضمونه ولما اشتمل عليه من دقة متناهية
في التصوير الاجتماعي والوصف الواقعي
للمجتمعات التي تعرف إليها ابن بطوطة، وأجرى
بينها المقاييسات والمقارنات والموازنات التي
يتطلبها - طبعاً - المنهج العلمي. فجاء شاملاً - كما
ذكرت - لكل النواحي التاريخية والجغرافية
والاجتماعية (العمرانية) والسياسية والاقتصادية
والمعيشية والروحية والثقافية.. فقل في أنه يعدّ من
أهم كتب الجغرافية الوصفية للبلاد والجبال. ومن
كتب التاريخ الاجتماعي والإسلامي في القرن
الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) وتقويم هام

من كتب تقاويم البلدان. وقال فيه الدكتور زكي محمد حسن: ((وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته. ف خلف لنا صوراً صادقة. كلها حياة للعصر الذي عاش فيه. ووصف لنا الأشخاص والجماعات وصفاً يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا)). (4)

وأما عن شخصية ابن بطوطة فقد قال نفسه: ((عدّ من أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، وأكثرهم طوافاً في الآفاق، وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها)). (5)

وفي العصر الحديث أقبلت الحضارة الأوروبية على كتاب ابن بطوطة وأمثاله من كنوز الحضارة العربية. وأخذت منها ما كان له شأن في تقدمها وتطورها. واستفادت من رحلة ابن بطوطة بصورة خاصة في معرفة جغرافية الشرق الأقصى، والاهتداء إلى قارة أفريقيا واكتشاف بعض مجاهلها. حتى تحمس كثير من العلماء والرحالة والباحثين الأوروبيين له إلى درجة الإعجاب. وأسجل هنا ما قاله فيه الرحالة الأوروبي (ستيزن): ((أي سائح أوروبي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن مثل ابن بطوطة بالبحث، والكشف عن المجهول من البلدان السحيقة مع مسافات السفر.

وأية أمة منذ خمسة قرون تجد في أبنائها من يجوب
البلاد الأجنبية، وفيه استقلال الحكم والقدرة على
الملاحظة والدقة ما لهذا الرحالة. إن معلوماته عن
جهات أفريقيا المجهولة لا تقل عن معلومات
(لاوون) الإفريقي)). (6)

وأخيراً يجب أن ننوه بأن ابن بطوطة قد أحرز
قصة السبق في حركة الرحلات، ونال فخراً كبيراً
في دفعها إلى درجة النضج والاختمار. لم يحصل
على ذلك بسبب نبوغه الشخصي ولا جهوده الذاتية
الفردية التي بذلها فحسب. بل بسبب تقدم حركة
الرحلات في الحضارة العربية التي طورتها من
أسفار البعثات الرسمية والموفدين، وأسفار أصحاب
الخارج الجبابة، إلى ترحال أصحاب المصالح
الاقتصادية والنجار. إلى الرحالة المحترفين أمثال
الهروي والإدريسي وابن جبير وغيرهم الذين
أورثونا تراثاً عظيماً يعتبر مفخرة من مفاخر علم
الرحلات إذا جاز هذا الاصطلاح - وقد قال فيهم
المستشرق الروسي (فلاديمير مينورسكي): ((
ملؤوا الفراغ بين بطليموس اليوناني وماركو بولو
البندقي، وأخبارهم وقصصهم أكثر تدفقاً وأشد
حيوية من كتب علماء اليونان وجداولهم. وعلمهم
أعظم اختياراً ونقداً، وأكثر في التفاصيل من ماركو
بولو)). (7)

من هذا المختبر الحضاري، نهل ابن بطوطة، وتولدت عبقريته، ونال شأنه في حركة الرحلات.

الحواشي:

- (1) نسبة إلى لواتة، وهي قبيلة كبيرة من قبائل البربر في شمالي أفريقيا.
- (2) راجع كتاب الدكتور نيقولا زيادة ((رواد الشرق العربي في العصور الوسطى)).
- (3) كان الأستاذ (جيب) يشغل منصب مدرس اللغة العربية وآدابها في جامعة أكسفورد.
- (4) كتاب (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) للدكتور زكي محمد حسن طبعة مصر 1945 ص 171
- (5) المصدر السابق ص 136
- (6) من مقدمة كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة) لأحمد العوامري، ومحمد أحمد جاد المولى. طبعة مصر 1937
- (7) كتاب (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى المذكور أعلاه ص 179).

غوة دمشق وما قاله الرحالة فيها

بالنظر لهجوم العمران على غوة دمشق المعروفة في التاريخ بكثافة أشجارها، ووفرة مياهها، وكثرة خيراتها.

و بالنظر لانحسار مساحتها الآن. وقلة بساطينها، تجاه هذا الزحف الكاسح من البناء.

وتعزيزاً لإعادة الغوة إلى سابق عهدها، و انتصاراً لبقاء البساط الأخضر الدائم ممتداً على مساحتها.

أسوق إلى القراء الكرام جملة مما قاله الرحالة فيها قديماً . عندما زاروا دمشق .

ورأوا غوطتها الغناء فسجلوا وصفهم ومشاهداتهم الحية لها، وراحوا من فرط إعجابهم يستعيدون ما أنشده الشعراء في وصف محاسنها، وعلى رأس هؤلاء الرحالة الرواد الرحالة الكبير (ابن جبير) فقد كتب في كتاب رحلاته المعروف باسمه عن غوة دمشق. قال:

((دمشق، جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق. وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها. قد ثملت بأزاهير الرياحين، وتجلت

بحلّل سندسية من البساتين، وجلت من موضوع
الحسن بالمكان المكين .

وتزينت في منصتها أجمل تزيين.. ظل ظليل وماء
سلسيل تنساب مذانبه انسياب الأرقام، بكل سبيل
ورياض، يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج
لناظريها بمجتلى صقيل. وتتاديهم هلموا إلى
معرس ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء. حتى
اشتاقت إلى الظمأ. فتكاد تناديك بها الصم الصلاب:
((اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)) . -
قرآن كريم - قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة
بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت
بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر..)) .

بلى. اندهش وانفعل ابن جبير بسحر دمشق وجمال
غوطتها وفتنته المناظر الخلابة فيها، عندما رآها
وقارنها ببلدان أخرى كان قد زارها، فجاء وصفه
هذا جامعاً رائعاً لدرجة أنه لم يخل بحث قيل في
دمشق وغوطتها في ذلك العهد، إلا وتقدمه هذا
الوصف.

أما الإدريسي، الجغرافي العربي الشهير فقد أطنب
في وصف هواء الغوطة وكثرة أشجارها وجودة
ثمارها.

والمقدسي قال عنها في كتابه المسمى (أحسن
التقاسيم في معرفة الأقاليم):

((دمشق عروس الدنيا مع سمرقند، ونهر الأبله.
أنزه منتزهات الدنيا..)).

وينقل لنا ياقوت الحموي في كتابه المعروف (معجم البلدان) قول أبي بكر الخوارزمي: ((جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصفد سمرقند، وشعب بوان، وجزيرة الأبله، قال: وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق، وقيل في غوطتها: كفضل الأربع على غيرهن. فكأنها الجنة وقد زخرفت وصورت على وجه الأرض.)).

وأما ياقوت نفسه فقد قال في دمشق و غوطتها: ((وجملة الأمر لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله. ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقتها وإلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد)).

واليعقوبي وصفها بإسهاب، ومما قاله: ((مدينة دمشق جليلة قديمة وهي مدينة الشام، في الجاهلية والإسلام وليس لها نظير في بلاد الشام في أنهارها ومبانيها وكثرة عماراتها)).

وأما الرحالة الكبير ابن بطوطة فقد أفرد لها عدة صفحات في كتاب رحلاته المسمى (تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار)، وأخذ يدون ما قد نظمه الشعراء في الوصف وما كتب الذين سبقوه، وكأنه أحس إزاء مهابة المحاسن

بالعجز عن الوصف، فقال: ((ودمشق هي التي
تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً، وكل
وصف، وإن طال فهو قاصر عن محاسنها..))
وبعد أن ذكر بإسهاب عن ((إحداق البساتين الكثيفة
بها، وغطتها المخضرة وأنهارها الثجاجة)). قال:
((إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها.
وإن كانت في السماء فهي تساميتها وتحاذيها..))
وينقل لنا هذا الشعر بالمعنى نفسه لشاعر لم يذكر
اسمه:

إن تكن جنة الخلود بأرض
فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها
قد أبدت هواءها فهوهاها
وللشاعر شرف الدين بن محسن:
بلاد بها الحصباء درر وتربتها
عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

وقال الشاعر عرفة الدمشقي الكلبي:
ما صاح فيها على أوتارها قمر
إلا يفيئه قمري وشحرور

يا حبذا ودروع الماء تنسجها
أنامل الريح، إلا أنها زور
وهذا ما أنشده الشاعر أبو الوحش سبع بن خلف
الأسدي. وقد سحر بحسن طبيعتها، وكثرة أفيائها
وظلالها، حتى فضلها على سائر بلدان الدنيا:
مدينة ليس يضاهي حسنها
في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق أنها
منها ولا تعزى إلى عراقها
قد رتع الربيع في ربوعها
وسيقت الدنيا إلى أسواقها
ولا يقل عنه إعجاباً الشاعر نور الدين العنسي
الغرناطي، الذي قال:
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها
واسمع إلى نغمات الطير في الشجر
القصب راقصة والطير صادحة
والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها
لكنها بظلال الدوح تستتر
وبعد هذه الشذرات الشعرية التي جمعها ابن
بطوطة. نستعرض جملة مما كتبه الشيخ عبد
المولى الحضرمي. قال: ((سحت البلاد، ورأيت
ما بها من الأعاجيب: فكانت صفد سمرقند وشعب

بوان بنيسابور ونهر الأبله في أعمال البصرة،
ودخلت إلى دمشق وتنزهت في غوطتها. وجدتها
أحسن من الثلاث. وأكثرها خيراً.

طولها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً
مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على
أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها)).

هذا ولم يقتصر وصف دمشق وغطتها على
الرحالة العرب في ذاك الزمن - الوسيط - بل
تعداهم إلى الرحالة الأجانب، ولا سيما الإفرنج
منهم. فقد أسهبوا في الوصف نظراً لإعجابهم بما
رأوه، من (روعة أشجار، ووفرة خضار، وجودة
ثمار). وغزارة مياه، أذكر منهم (وليم الصوري)
الذي زار دمشق وافقتن بجمال غوطتها وسحر
طبيعتها وكثرة غياضها ومياهها وهذا الرحالة
يعتبر أول رحالة غربي خص دمشق وما يحيط بها
من جنان بوصف مفصل ودقيق. ثم جاء بعده
الرحالة (تتمار) الذي زارها وأعجب بها حتى شبه
الغوطة بالجنة لكثرة حدائقها ((ذات الأشجار
المتنوعة، والأزاهير الملونة. تسرح بها العنادل،
وتغرد حتى أيام الخريف)).

وأما الرحالة (بنيامين)، فقد قال فيها بعد زيارته
لها: ((إنها مدينة كبيرة جميلة بها سور تحيط بها

بلاد فائقة الحسن، تمتد خمسة عشر ميلاً. لا توجد
بالدنيا مثل حدائقها وبساتينها..)).
والرحالة (سوخم) وصف أيضاً، عظمتها وخيراتها
وكثرة أشجارها وغيرهم كثير.

حكايات الشرق في موسيقى رامسكي كورساكوف

ظل الشرق - الشرق العربي - محتفظاً بمكانته السامية في نفوس الغربيين منذ القرون الوسطى إلى اليوم. فيتمثلونه بحضارته الغنية المتموجة، الجامعة لشتى مناحي الحياة، الزاخرة بكل الألوان والأشكال، التي تطمح إليها النفس الإنسانية. وينشدونه كموطن للسحر والجمال. يتراءى لهم بطبيعته الفاتنة، ومناظره الخلابة، وماذنه السامقة ودوره المزخرفة الفخمة، وإنسانه الأسمر، المعتلي فوق جواده الجامح بهيئة الفارس الشاكي السلاح. الذي تزين وجهه لحية سوداء، وتتدلى على كتفيه عباءة مقصبة، كشارة للرجولة والبطولة.

وهكذا، فما الشرق إلا هذه الصور، التي تستهوي الخيال وتجذب النفوس. فاستحقت منهم السفر والمغامرة. واستأهلت أن تكون محطة لترحالهم وموضوعاً لكتاباتهم، يستلهمون منها الأساطير والحكايات التي تسيل على بيانهم أوابد أدبية وبدائع موسيقية وروائع من لوحات الجمال و الفن.

وسأقدم في هذه العجالة واحداً من هؤلاء الغربيين، المستهيمين بالشرق والمتأثرين بمفاتن حضارته والمتعلقين بحب آثاره وتراثه بما فيه حكايات البطولة وأقاصيص الفروسية، هو الفنان الموسيقار الروسي، رامسكي كورساكوف، الذي ولد عام 1844 في مدينة (تيزفينيا) التابعة لمقاطعة (نوفغورد) الروسية.

لقد عاش هذا الفنان في مدينة (تيزفينيا) حياة هادئة طبيعية. تلقى في مدارسها علومه الثانوية العادية. ولم يظهر عليه من خلالها أي اتجاه نحو الفن والموسيقا في بادئ الأمر. إلا أنه كان يميل دوماً إلى الحديث عن الشرق والاستماع إلى حكاياته وسائر أخباره. وبعد أن أكمل دروسه في مدارس مدينته انتسب إلى المدرسة الحربية. وتخرج منها برتبة ضابط بحري. ولكن كان من خلال سماعه دروس الموسيقى أثناء إقامته في المدرسة الحربية، وهو الشاب المندفع ذو الخيال المتأجج الجامح، كان قد تولد عنده ميل عنيف وجارف للموسيقا. فصار يطيل الاستماع إليها وينهل من كنوز منابعها. وقد خصص وقتاً كبيراً لدراستها حتى اتقنها وبرع بها. فطار صيته في مقاطعته وتجاوزها إلى المقاطعات الأخرى، وطبعاً كان يستلهم مواضيعه لمؤلفاته من حكايات الشرق موطن حبه القديم. وفي عام 1871

ترك الجيش وعين استاذاً في المعهد الموسيقي في مدينة سان بطرسبورغ. وهنا فوجئ، هو نفسه، بهذا التعيين. واعتبره كبيراً عليه. لهذا أخذ يجد ويدرس ليوازي مهمته. وقد تمكن في وقت قصير أن يتغلب على كل عقباته، ويستوعب علوم الموسيقى ويصبح فيها عالماً ومنظراً. الأمر الذي أهله لينضم إلى جمعية الموسيقيين الخمسة فيما بعد. هذه الجمعية التي كان قد أسسها الفنان الروسي (غلينكا) مع تلميذه (دار كوميزسكي). وكانت تتألف في عهد رامسكي كورساكوف من الفنانين - سيزاركي وبلاكيرييف ويور دوين وموسورغسكي وما انضم رامسكي إليهم حتى غدا من أبرزهم. وامتاز عليهم بعلمه وبسعة إطلاعه وتوقد خياله المشبع بروح الشرق، وخصب روحه. فانداحت نفسه في مسارب سحر الموسيقى وجمال مغانيها إذ راحت تجمع وتؤلف من موجوداتها البلورية الشفافة ما صفا واسترق. فجاءت عطاءاته بديعة غنية ذات لغة موسيقية قوية نشطة، ووحى فني (شرقي) خاص. وكان من أهم مؤلفاته المستلهمة من ودائع مخيلته عن الشرق رباعياته الوترية. وقطع الأوبرا الجميلة مثل قطعة (ليالي ماسي) التي ألفها عام 1880 و (ملادا) عام 1893 و (ليلة عيد الميلاد) عام 1895.

إلا أن إبداعه وتفوقه في نقل سحر الشرق وترجمة جماله الأخاذ والتعبير عن مكنون روحه وحكاياته. كان أكثر ما تجلى عنده في السمفونيات التي ألفها مثل سمفونية (سادكو) التي تتطوي على إبداع جميل والحن رائعة يتمثل فيها شيء كثير من تراث الشرق الشعبي. وكذلك سمفونية (الديك الذهبي) وقد ألفها عام 1905. وسمفونية (شهرزاد) المشهورة. وسمفونية (عنتر) الذي حلها بتوزيع موسيقي بارع يترك عند سماعها أثراً عميقة في النفس. وذلك من خلال استلهامه شخصية عنتر العربية، البطولية، التي يتحدى فيها إقطاع مجتمعه الجاحد لفضله والناكر لشخصه. فيفرض فيه وجوده كعضو اجتماعي شجاع سوي. له الحق أن يحيا ويحب ويعشق كسائر أفراد السويين.

هذا وظل رامسكي كورساكوف يجاهد في أداء رسالته الفنية إلى أن توفي عام 1909 في مدينة بطرسبورغ (مدينة السحر والموسيقا). فدفن فيها. وكله نوب ووجد ليصوغ كل لآلئ الشرق في تنضيد موسيقي عجيب.

حياة الموسيقي لويس هكتور برليوز سيرة في كفاح الفن، قاداته إلى العبقرية والخلود

عاش لويس هكتور برليوز، منذ صغره، في بيئة بعيدة كل البعد عن ميوله الفنية، وما كانت تهفو إليه طبيعته، من حب جارف للموسيقى، بعكس ما كان يتيسر لأمثاله من مشاهير الموسيقيين، الذين نشؤوا في أوساط فنية ملائمة لميولهم، وتربى كل منهم في كنف والدين يحبان الموسيقى، ويمارسان العزف بصورة جيدة. فيشب في هذا الجو السحري البديع، مطبوعاً بالفطرة على حب الموسيقى، ومعرفة العزف بآلاتها المختلفة، فيخلق صعداً في سماء مواهبه. وبالتالي يبلغ به المآل إلى الشهرة والمجد اللذين يتوخاهما. بعكس فناننا لويس هكتور برليوز الذي عاش بين يدي والدين لا يربطهما بالموسيقى أي رابط، ولا يعرفان العزف على أية آلة من آلاتها، وحتى قيل أن المنطقة، التي ترعرع فيها، لا يوجد بها آلة واحدة من الآلات الموسيقية المعروفة. ولما شب لويس في أحضان أسرته. وظهرت بوادر ميوله الفنية عارضه والداه معارضة شديدة في متابعة هوايته. وزجره والده بالذات ليكف عنها، وينتسب إلى معهد الطب،

ليصبح طبيباً مثله، له عمل ذو أثر في المجتمع. ولكن لويس ثابر على احترام ميوله ومواهبه، وظل صادقاً مع نفسه، رغم كل العقبات التي وقفت في سبيله. فتابع دراسته الموسيقية، حتى توصل في النهاية إلى الشهرة التي يريدها من خلال شخصه كفنان عبقرى خالد.

ولد لويس هكتور برليوز، في مقاطعة - الأيزير -، على شاطئ - سانت أندره - بفرنسا عام 1803. في بيت يكتنفه التزمّت العلمي - كما ألمحت - حيث كان والده طبيباً، ويريد أن يتجه أبنه للطب مثله. ألا أن لويس، عاند والده، وظل يتابع دراسة الموسيقى والعزف، يمارس ذلك على ما يقع تحت يديه من الآلات. وبالفعل، خلال ممارسته العزف، برزت موهبته الموسيقية مبكرة جداً. ففي السنة الثانية عشرة من عمره ألف بعض المقطوعات الناجحة في الموسيقى الرومانسية. ولما نال الشهادة الثانوية. أرسله والده إلى مدينة باريس، باعتقاده أنه سيدرس في كلية الطب هناك. ولكن لويس لم يعر اهتماماً لتلك الدراسة، بل أخذ يتردد على صالات الموسيقى ومسارحها، ويستمتع إلى كبار الموسيقيين، وخاصة إلى موسيقى - كلوك - الراقية حتى أشبع رغبته، وقوى مداركه فيها. ولما وثق من نفسه بها، ترك كلية الطب بتاتاً والتحق بالمعهد

الموسيقي، وأظهر فيه إبداعاً وعبقريّة على يد
أستاذه الموسيقي المعروف - لوسيور - وفرض
احترامه في الوسط الفني، كموسيقي مبدع لامتّع،
ففي أثناء دراسته أصدر مقطوعته - لي فران جوج
- عام 1827. وبعد عام أصدر مقطوعة - الفصول
الثمانية لفالوست - . وفي عام 1830 ألف سيمفونية
- الفانتازيك - الرائعة. وتعرف الجمهور إليه من
خلال نشاطه هذا، وشهد له الكثير بالأصالة
والنبوغ. حتّى وضع في مرتبة بالموسيقى أرفع من
مرتبة أستاذه نفسه، الذي صرح بأنّه لا يحسده على
شهريته.

ولكن لم يدم لبرليوز هذا النجاح طويلاً، حيث صدم
بمقطوعته - هارولد في إيطاليا -، التي أصدرها
في عام 1834. ولم تلاق النجاح الكافي الذي يليق
به كفنان مشهور. وراح يجد أكثر. فأصدر في عام
1837 مقطوعة بعنوان - أوروكويم - . ولكنها لم
تنجح أيضاً. وفي عام 1838 لم يقبل الجمهور على
سماع مقطوعته - بينيه فينوتو سليني -، ولا على
مقطوعته الثانية - روميو وجولييت - التي أصدرها
بعد عام، لهذا رأى أنّه يتوجب عليه أن يجدد
شهريته في بلاد غير فرنسا، فسافر إلى ألمانيا
والنمسا وروسيا، ولكن ظل على النتيجة نفسها، ولم
يصادف إقبالا على موسيقاه، كما كان يتوقع،

وأدرك أن بينه وبين الجمهور حواجز، فراح يزيلها بالدراسة والتلحين والتأليف، بهمة لا تعرف الكلل، رغم ما كان يشعر به من الحرمان والهم ومن فقدان العاطفة. حتى أن مقطوعاته التي صدرت عنه فيما بعد كانت خلوا من روح العاطفة الحارة، التي اتسمت بها مقطوعاته في سن الشباب، على أنه ظل يقاوم صعابه بصبر وأناة، ويلتصق بآلاته ليل نهار، يلحن ويؤلف عليها، ساكباً بين أنامله ذوب روحه، ونقاء نفسه. مجسداً بأنغامها مشاعره وأحاسيس وجدانه، وآلام قلبه الذي كان عاثر الحظ في عمله، فتعذب بحب ممثلة عدة سنوات ولما تركها تعلق بعازفة الكمان الشهيرة - كميلياموك - . فخانتته وكادت تقوده إلى الانتحار. ثم هام بحب الممثلة الإنكليزية ذات الشهرة العالمية - هنريتا سميتسون - ، ولما تزوجها في عام 1842 خطفها الموت من بين يديه.

ولكن رغم كل حياة البؤس والشقاء هذه، ورغم ما اعترض مسيرته الفنية من صعوبات، ظل - برليوز - هادئاً مطمئناً لنفسه، واثقاً من فنه الذي ضمخه بما استلهمه من مرارة الآلام ومعاندة القدر، فتفجر إبداعاً وسحراً وجمالاً، دخل من جديد مباشرة إلى نفوس الجماهير التي كانت تحتشد لسماعه. وهكذا تمكن بصدقه وأصالته أن يسترد

اعتباره ويحظى بالمكانة الفنية التي كان يطمح إليها.

وفعلاً، قبل أن تنتهي حياته في عام 1869، شهد له الكثير من المختصين، بأنه يعتبر من كبار الموسيقيين في عصره. وقال فيه النقاد أنه موسيقي ملهم يفوق الكثيرين قدرة وموهبة. هذا واعترفوا له بأنه، هو، الأول في فن تنظيم الأوركسترا والتوزيع الموسيقي. ترك بعد مماته كتاباً ثميناً بهذا الموضوع سماه ((فن الآلات))، كما اقروا، جميعاً، بأنه هو، بطل العزف على البيان في العالم كله، بلا منازع في عهده.

هذه هي سيرة لويس هكتور برليوز الذي توصل بصدقه وإخلاصه لفنه إلى المجد والشهرة اللذين كان يريد هما، بعد تلك الحياة المريرة القاسية التي عاشها.

معاناة الكتابة

إن ما نستمتع بقراءته، من أجناس الأدب، كسرحة في قصة. أو شرود مع قصيدة. أو رحلة بين دفتي رواية. ليس، هذا، إلا الشيء الجاهز المعد من الأدب، الذي نقطفه بيسر وسهولة. كما نقطف الثمرة الناضجة من الشجرة. هو الجانب المضيء منه. أما جانبه الآخر، المقابل. فهو ما يتجلى، في ذلك الجهد، الذي يبذله الأديب، وهو يعاني آلام مخاض الإبداع. ويستدر زرع الكشف. ويطرق باب المجهول، حتى يستجلي كوامن إلهامه، فيكتب لنا أدباً نستعذبه ونتملى صورته. وننتشي بسحر أخيلته، ونحن في ارتكاء مريح. أو ضجعة قبل النوم. ولنعلم أن كل ما يصدر عن خاطر الأديب، إن هو إلا من ذوب روحه وعصارة نفسه، قضى فيه الليالي الطوال، يتحمل عذابات التأمل، ويصبر على غنج القريحة الحرون ودلالها. يوجب نار الاعتلاج. ينفعل. يغوص. يستنتج خلاصة رحلة الحياة الشاقة. ثم يروح بعد لأي مرير، يسكب آياته الإبداعية، في عملية خلق جديدة.

فالأدب ليس هو هذه اللحظات العذبة الجميلة، التي نستمرئها، ولا تلك الإرهاصات المجنحة الطموح

التي نستشعرها، فحسب، بل هو أيضاً هذا العمل الخفي الدؤوب. الذي نجد فيه تعميق الحياة وتكثيف الزمن، واستنفار الحواس وتوتر الأعصاب. فقراءة صفحة أدبية ما هي إلا تراكم من الزمن، وعامود طويل من الجهد والعناء. إن بناء الكلمات لأتعب بكثير من بناء الحجارة. وإن ابتكار الصور واشتقاق المعاني لأصعب من شق الصخر. فدقيقة واحدة من القراءة يبيت لها الأديب ساعات وساعات، وهو مؤرق مشدود ذاهل يتجول في مخبئات بواطنه وتجليات ذهنه الكزوز. يستلهم. يستشرف يرفض. يبذل، حتى يصل إلى بؤرة همومنا. فيحدثنا عن ذواتنا. ويستشف حدوسنا. ويلامس الجوانب الخفية فينا. أو يجد الشيء الضائع منا. يدلنا عليه ويضيفه إلى وجودنا. يحكي لنا قصة ذاك الحيوان الأزلي، القابع فينا، المعذب في إنساننا، المضغوط بأثقال الوعي وأوجاع التبكيت والقسر. ولعمري. الغوص في أعماق المجهول، والتفتيش عن الأشياء المفقودة من قسمنا الإنساني الأعظم، أو إيجاد الأجزاء الناقصة من نفسنا الكبرى، التي نستكمل بها جميعاً شخصيتنا لهو عمل شاق. ولكنه سام وفوق العادة!

خاطرة صغيرة في الشعر

يقال: كانت الكلمة في البدء. كلمة الإنسان. وكانت كلمة الشعر في بدء كلمة الإنسان. التاريخ شعراً كان. هيرودوت كان شاعراً وهو أول المؤرخين. ملاحم البطولة كانت شعراً، وهو ميروس لم يقدم الألياذة والأوديسة إلا في إهاب من الشعر.

أجدادنا العرب الجاهليون، أعلمونا عن خلجات أفئدتهم وهمسات خواطرهم، وعن ذكريات أطلالهم، وعن أيام معاركهم . بالكلمة - الشعر.

فلا عجب في أن يمثل الشعر المكانة الأولى في عالم الكلمة لدى الإنسان في كل زمان ومكان. وعند الأمم والشعوب جميعاً. فهو من حيث الشكل، ألفاظ شفافة، بلورية، موسيقية النغم، حلو التعبير، رشيقة الأداء، يمر فيها الضياء والنور.

ومن حيث المضمون دفقة الحس الملتهبة، وخلجة القلب ورقة الوجدان، وحنو الضمير، وتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان.

العودة

عدت إلى قريتي الهادئة الناعمة البعيدة عن الضجيج والضوضاء، عن كل ما يوقر الأذن، ويثقب الرأس، من ضجيج المدينة وعجيجها عدت إليها بعد أن فارقتها ردىاً طويلاً من الزمن. أجل فارقتها راغباً لا كارهاً، لما كنت في أول شماريخ شبابي، أحمل في صدري عريض الآمال، وفي دمي دفقات القوة والنشاط، واعترف في العلن لا في الخفاء، إن قريتي الصغيرة بجبلها المشجر، وروابيها الخضر المحيطة. لم تستطع أن تمتص قواي، وتستنفذ همتي، كما فعلت مع أتراب المرحوم والدي، الذين أبلوا في كرومها وسهولها البلاء الحسن، ضرباً بمعاولهم وحرثاً في الأرض العجراء لقد ضقت ذرعاً بمطامعي وآمالي. كانت وسيدة مغرية إلى درجة أن دفعتني إلى السفر، فاستقبلتني المدينة وجادت علي بما تملكه من وسائل الجذب والترغيب ولم يكن مني يومئذ إلا أن نفضت يدي من قريتي، وعملت كاتباً عدلياً. مستبدلاً المعول بالقلم، والمنجل بالريشة، والقباء العربي الفضفاض بالبذلة (الإفرنجية) الضيقة الأنيقة.

وهكذا طالت بي الأيام، وامتدت السنون، حتى
ذوت زهرة العمر وشحبت نضارة الجسم، فذهب
الشباب، وغارت فتوته الزخمة الفياضة، فخرجت
من الوظيفة معصوراً هزياً، كأن بي سقم مزمن.
لقد كان الجلوس خلف الطاولة، وحمل القلم. ونسخ
السجلات، أقوى تأثيراً علي من زرع الحقول
وتسوير الكروم، وحفر التراب، فالقلم على دقة
عوده، وخفة وزنه أثقل من المعول، وغمس الريشة
في المحبرة، أصعب علي من سفح جرادل الماء
على مساكب الخس والبقدونس والقرنبيط،
والجلوس على الكرسي كان أشق على النفس،
لدي، من السير وراء المحراث، أو تصريف الماء
في قنوات السقاية.

لقد خاب ظني عندما حملت شبابي وقوة
ضخه، وهربت بهما إلى المدينة بصحبة شهادتي
الثانوية (الفرع الأدبي) لأثوب إلى تلك الوظيفة،
السجن. وأسلخ فيها ثلاثين عاماً متواصلة بلياليها
وأنهرها دون انقطاع. فأراني الآن، بعد أن أحلت
على المعاش - أي تقاعدت - بحاجة إلى استبدال
الهواء الحبيس وركوب الباص وزحمة الناس في
الشوارع. إلى استبدالها جميعاً بالهواء الطلق في
شعاب الجبل، والركض وراء الحيوانات، ورؤية
الزوابع وهي تلتف حول نفسها، وتدور متجولة في

بيادر قرיתי وحولها المترامية على مدى خط الأفق.

لقد عدت بعد غيبة، إلى قرיתי العزيزة. عدت إلى أحضانها الدافئة الحنون. استجم فيها الصحة والعافية. وإعادة الشباب، إذا كان الشباب يعود من جديد، في كنف طبيعة باسمة رضية رحية.

عدت إلى قرיתי مسرع الخطا. يدفعني الشوق والحنين لأقبع في بيتي المشمس المتواضع، استقبل فيه ضياء الكون، وأخلع عني رداء الوظيفة السميك الثقيل، وانتزع من رأسي أدران المكتب والروتين، وأعباء المراجعين، وتغنت الرؤساء والمرؤوسين.

أجل استقر الآن في بيتي الريفي القروي البسيط، وأتمتع بحديقته الصغيرة الحافلة بأنواع الورد والنبات الفائحة بأعباق الشذا والأريج، الملطفة بهبات الأنسام النقية البليلة وأعزف، دون هذه الحياة، عن أية حياة أخرى.

وبعد. لا تصدق أن هناك أجمل من تلك الغدوة التي تنهض فيها، من فراشك، حين ينهض الطير من وكره وتشاهده و أنت ذاهب إلى حقلك أو كرمك، على ضوء بهيق الغلس الأخير جماعات (الفراري)، وأسراب، (السمن والمطواق)، تنتقل بين الأفنان الملتفة على جانبي الطريق، وهي تهدل بشدوها وغنائها.

وهل تحظى بجلاسة عذبة، خالية بريئة، كهذه
الجلاسة التي تجلسها على حافة عين قراح، يتفجر
ماؤها الزلال النмир بارداً مثلوجاً، من بين شقي
صخرة بركانية ملساء كبيرة، تطفئ برحيقه غلة
ظمئك، ببرودته ما كوتك به حرارة الهاجرة...؟!

وبعد هذه الجلسة، تنتقل غير بعيد عن الرذاذ
المنتشر في الهواء، إلى تحت شجرة زيزفون،
وارفة الظلال ممتدة الأغصان، تترنم على سقسقة
العصافير حول الجداول والغدران.
ثم تنهض وتنظر، من حواليك، إلى دنيا الله
الواسعة. إلى جناتها الخضر المرافقة للنظر حيثما
امتد وامتد.

وبعد أن تشبع حواسك وأحاسيسك وأنت تسير
وتتجول في هذه الطبيعة الصافية. تراك تصوير
تنظر إلى نفسك، وتشاهدها من الداخل. حيث
تهدهدك الذكريات الغالية الحبيبة، وتلهو بخيالك
الأحلام العذبة الجميلة، فتسبح في هذا الفضاء
السمح الرحب، على أنغام المنى الغافية المجنحة
نحو عالم كله حب وخير وجمال...
إنك لتجد كل هذا في قرיתי.

الله! ما أحلى قرיתי! وما أحلى عودتي إليها! وما
أحلى عناقي لطبيعتها الطاهرة الخالصة، بكل ما
فيها من ماء وهواء وحيوان وطيور وحشرات...!!

نعم، وألف نعم. أقولها بلا تحرج. لقد عدت وعادت
إلى الروح والحياة والشباب، عدت وفي العودة خير
وعافية، عدت والعود أحمد...

هل أصبحت الأرض عجوزاً؟

دلت الدراسات الجارية على نشوء المادة في الكون أو على نشوء النجوم والكواكب. على أن النجم الفتى هو عبارة عن بوتقة نووية، يتحول فيها الهيدروجين إلى هليوم. أي الدقائق المبعثرة أصلاً، تتجمع بعزم الحركة في نوى معقدة، وتتحد بتوليد العناصر الأولى، وهكذا تتابع السير، فيتم تشكيل النجم أو الكوكب. ويعرف تحويل الهيدروجين إلى هليوم في الطبيعة بالعمر الأول للمادة. حيث تستقر في هذا العمر أو الدور، الهليونات وتسيطر على المسرح، وتنشأ عنها اندماجات جديدة، وتولد عناصر الكربون - الفحم - والأوكسجين والنيون..

ويظهر نشاط في النجوم ذات الحرارة العالية، للسيرورة النترونية، حيث تولد تفاعلات الحرارة النووية تدفقات نترونية، تعتبرها هامة في تكوين العناصر الثقيلة في المادة، فهذه النترونات تدخل بسهولة إلى داخل النوى. فتزيد من رقمها الكتلي، ومن عددها الذري - الجوهري -. فكما هو معروف في الواقع الكيميائي النووي أن وصول نترون خارجي إلى نواة يغير البنية فيها، ويولد النظير لها. فالنوى الغنية بالنترونات، يتحول فيها

النترون إلى بروتون، مع إصدار إلكترون طبعاً، أي إشعاع - بيتا - . لأن إشعاع بيتا هو إشعاع الكتروني، وهكذا تتولد عناصر ذوات أرقام ذرية متزايدة.

ولقد حصلت في كوكبنا الأرضي هذه الأدوار - الأعمار - لتفكك النوى واستحالة العناصر المادية إلى عناصر مادية أخرى، وأهم دور في الأرض هو دور التورיום والأورانيوم، فيقدر عمر الأول بـ 700 مليون سنة. وعمر الثاني بـ 4.5 مليار سنة، فالتورיום والأورانيوم هما شاهدان حقيقيان على تاريخ نشوء الأرض، فإذا ما قسنا في صخرة كمية الأورانيوم التي استحالت إلى رصاص، تمكنا من معرفة عمر الصخرة وهذه تقودنا إلى معرفة التاريخ الجيولوجي. وبناء على هذا الأساس قدر عمر الأرض بـ 4.5 مليار سنة، وقدر العالم الألماني - فينبرغ - زخر الأرض من التورיום بـ 50 ألف مليار طن، ومن الأورانيوم بـ 129 مليار طن - فالأرض غداة تكوينها - وحسب ما ذكر فيما تقدم - كانت تحتوي على عناصر مشعة، أكثر مما هي عليه الآن، والعناصر الكبيرة النشاط هذه تتناسب عكساً مع - الدور - للعنصر، فالدراسات تشير إلى أنه يتفكك كل سنة ما يقارب 3000 طن من التورיום و 5000 طن من الأورانيوم رقم

238 و 900 طن من الأورانيوم رقم 235 علماً أن الأورانيوم رقم 234 قد زال من الأرض تماماً.

وهذه الظاهرة، ظاهرة تناقص المواد المشعة من الأرض. تقود بالأرض إلى حالة الابتعاد، وهكذا يكون بنضوب العناصر الأشد نشاطاً - إشعاعاً - قد انخفض المعدل للحرارة التي تولدها. فمثلاً التوريوم والنظائر الأساسية للأورانيوم انخفض معدلها من 13 حريرة في كل كيلو غرام واحد من الأرض خلال مليون سنة إلى معدل 4 حريرات في الكيلو غرام الواحد. فالأرض بعد أن كانت حارة جداً في الطور الأخير من تكوينها بدأت تبتدر بتباطؤ، وأخذ سطحها يسعى نحو درجة حرارة المحيط التي يفرضها، حتماً، البعد عن الشمس. ونحو حالة الماء سائلاً، وحالة الأكاسيد متصلبة. بحيث تم تشكيل القشرة الأرضية تدريجياً. وبالتالي كتلتها التي تقدر - بـ 6 ملايين - مليون مليون مليون - طن، منها 100 مليون طن وزن جسم الإنسان.

وقد ولدت ظاهرة الابتعاد في الأرض، لدى العلماء المختصين خوفاً، بأن الأرض ستبرد يوماً حتى تصبح غير صالحة لاستمرار الحياة الإنسانية عليها. وقد حسبوا أن هذا الابتعاد - المميت - سوف يحل بعد مضي - مليون مليون مليون - سنة.

والأرض هي الآن في الدور الأخير من صيرورة عمرها، تشهد مرحلة انتهاء النمو، وتبدأ فيها مرحلة الهبوط، فهي تخسر مثلاً كثيراً من العناصر الخفيفة. فالإشعاع فوق البنفسجي للشمس يؤثر على ارتفاع 100 كم في الماء، فيحطم جزيئاته، ويحرر الهيدروجين، فيدفعه أولاً نحو الهالة المحيطة بالأرض، ثم يخرج به نحو الفضاء، وهكذا تخسر الأرض قرابة 100 طن من الهيدروجين يومياً، لا تعوضه الشمس بما ترسله من البروتينات إلا بنسبة قليلة.

هذا وكانت الأرض تعوض هذا الذي تخسره من العناصر الفعالة، شيئاً من المعادن التي تكون على شكل مادة مبعثرة ترد من الفضاء - النظام الشمسي، على شكل شهب ونيازك تسقط على الأرض، فتزداد بها كتلة الأرض. وإن كانت زيادة طفيفة. وقد قدر الرحالة السويدي - نورد شولد - منذ عام 1874 ما يرد من السماء إلى الأرض ما يعادل مليون طن من المعادن. وقد صادق على هذا الحساب العالم - بريستون - مدير مرصد هونولولو عام 1957، فكشف أن هناك 1 ملغرام من الغبار الشهبى في كل 1600 م3 من الهواء.

نشأة الكون والحياة في كتاب (قصة المادة السيبرانية والكون)

يعتبر العالم الأمريكي ألبيرو دوكروك في الوقت الحاضر، من أكبر العلماء المتعصبين للعلم السيبراني وما يتفرع عنه من مفاعيل العقل الارتجاعية الذاتية. فقد اعتبر حركة المادة حركة سيبرانية، واعتبر المادة برمتها مادة سيبرانية، وبنى عليها نظرية كبيرة وسعها وعظمها حتى استوعب فيها نشوء الكون والمادة والحياة، ونراه قد فصل معالم نظريته هذه في كتابه الشهير

((قصة المادة السيبرانية والكون)) . ترجمه إلى العربية المهندس وجيه السمان ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق.

لقد اعتبر (دوكروك) في كتابه هذا أن الكون (العالم) كان في بدء نشوئه عبارة عن سحابة كبيرة جداً من الهيدروجين المحرر - أي مجموعة من الإلكترونات والبروتينات وبقية الدقائق النووية المبعثرة. مستشهداً بما دلت عليه معلومات المصادر العلمية الحديثة، التي تؤكد أن كمية الهيدروجين الحر - أي الهيدروجين المحرر - تتراوح ما بين (60 - 100%) من كتلة المجرات

المبتدئة في التكوين، وطبعاً لا بد لكل مادة من حركة. حتى ولو كانت هذه المادة دقيقة جداً ومتناهية في الصغر، كأحدى دقائق الهيدروجين المحرر. ومن هنا يعمر (دوكروك) كونه فيقول: بفعل حركة ما تتجمع كتلة ما. وكل كتلة تحدث طبعاً حولها قوة جاذبية، تجذب نحوها المادة المبعثرة التي في جوارها، فتزداد كتلتها وتزداد معها قوة جذبها، ويتغير بالتالي تركيبها - أي بنيتها.

فمن تجمع تلك الدقائق المتفرقة والمبعثرة في الأصل تولدت ((النوى المادية)) ببناها المعقدة، والتي أدت هي، بدورها فيما بعد إلى ولادة العناصر الأولى في الكون. وهكذا كبرت تلك التجمعات المادية واتسعت وتغيرت إلى درجة أن كونت النجوم، وكونت الكواكب السيارة والتي أرضنا كوكب منها.

إذن كل نجم - كما يذكر (دوكروك) - هو عبارة عن بوتقة نووية فعالة. يتحول فيها الهيدروجين إلى هليوم، وذلك بفعل سيرورة النترونات مع البروتينات في النواة. وتحويل الهيدروجين إلى هليوم يعتبر العمر الأول لكل نجم في هذا الكون الرحيب. وهذا التحويل، تحويل الهيدروجين إلى

هليوم، يولد طبعاً طاقة محررة. يوفر منها للنجم الناشئ ما يلزمه في نموه.

فخلال ولادة النجم - أي بعد تحويل عنصر الهيدروجين إلى عنصر هليوم - تصبح الهليونات هي المسيطرة على مسرح التفاعل (التحويل) المادي، وهنا ينتهي العمر الأول في النجوم - أي بعد هذه السيطرة الهليومية - ويبدأ فيها العمر الثاني. ولقد نشأت خلال هذا العمر - العمر الثاني - بفعل ذلك التفاعل (التحويل) المادي اندماجات مادية جديدة في النجوم، فتولد الكربون ثم الأوكسجين والنيون. أي نشأة العناصر المستقرة.

ويدعم (دوكروك) كلامه هذا بما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة جداً والتي تقول أن كل النجوم ذات الحرارة العالية تولد فيها التفاعلات الحرارية النووية تدفقات نترونية تؤدي إلى ولادة كميات من العناصر الثقيلة. فدخل نترون إلى داخل النواة يزيد من رقمها (الكتلي) ومن عددها (الذري - الجوهري) - كما هو معروف في الفيزياء.

إذن كلما وصل نترون خارجي إلى نواة، يغير بنيتها ويولد فيها بما يسمى بالنظير. وقصته معروفة في العلم. والمعروف أيضاً أن النوى ذات الغنى الزائد بالنترونات، يتحول النترون فيها إلى بروتون، وكل تحول يرافقه - حتماً - إصدار

إلكترون. وهنا تحصل حالتان الحالة الأولى هي استقرار العناصر الجديدة لأن هذه العناصر لا تستقر إلا إذا تم الإصدار الإلكتروني. والحالة الثانية هي إحداث نشاط إشعاعي هو إشعاع ((بيتا)). فمن المعروف في الفيزياء اليوم أن كل إشعاع ((بيتا)) هو إشعاع إلكترونات. وبهذه السيرة تتوالد عناصر ذوات أرقام ذرية متزايدة وأخيراً تظهر العناصر الثانية المستقرة. بعد تشكل مادة النجوم والكواكب السيارة والأرض منها، لم تجد تلك الدقائق المادية - الذرية، التي تؤلف الكون بأسره، والتي يكمن في خفاياها المذهلة مصيره العجيب. لم تجد هذه الدقائق وسطاً خصباً لها مثل أرضنا. فهي قد أكسبت تلك الجزيئات والذرات خصائص مذهلة، وجعلتها تخضع لاتحادات كيميائية فعالة ثرية، لم تجدها في كوكب آخر. وهنا يشيد (دوكروك) بأرضنا (في هذا الخصوص)، لأن هذا الوسط أو هذا النطاق الأرضي قد أفسح المجال - في خصائصه - لأن يتمخض عن ذلك العزم المادي، الذي يجري على كوكبنا الأرضي، لأن يتمخض عنه حدث ذرائعي. فاعتبر (دوكروك) أن ذلك العزم المادي كان مسيراً لأجله، أو كان هو هدفه وغايته. ألا وهو ولادة الخلية الأولى التي ظهرت الحياة بها لأول مرة في هذا

الوجود ونجحت مغامرتها على الأرض، مغامرة البروتوبلازما على حد تعبير العالم البيولوجي أنونسي جان روشهان. ووجدت نفسها لأول مرة على سطح الأرض. وتثبتت تماماً بالبقاء بواسطة مادتها (البيولوجية)، حتى صار حلم كل خلية أن تصبح خليتين - كما يقول العالم الروسي البيولوجي ف. جاكوب. وهكذا توالدت الحياة وتوالى سلسلتها التصاعدية من الخلية الأم الأولى حتى بلغت ذروتها في الإنسان.

وهذا التواصل المادي - الحياتي. له عند (دوكروك) قصة شائكة معقدة فهو يعتبر أن الذرات وكذلك الجزيئات آلات - أي مؤسسات - صناعية، ذات حركات داخلية ارتجاعية ذاتية. فلما بلغت أوج عزمها وتقدمها استطاعت أن (تفبرك) الحياة. فهي تلد و تتطور وقد لعب فيها ميكانيكا التركيز الذاتي (السيبراني) دوراً فعالاً في القوة والخلق. فبواسطتها تجمعت المركبات المادية (الذرية) على أساس الملاءمة النوعية، ثم اختلطت هذه المركبات بالأوساط السائلة - أي أوساط المحيطات. وفي هذه الأوساط بالذات حدث جيشان شديد سببه عملية التحريض التي تقوم بها الجزيئات. (وهذا التحريض يحصل عندما تكون جزيئات المادة الواحدة موجودة في هذه الأوساط المرنة))

السائلة)) فتمر من أمامها جميع الجزيئات المادية (الأخرى).

من هذا المرور يتولد تحريض بالغ التوتر فيحدث هو بدوره جيشانا شديدا. وتحت تأثير الإشعاع فوق البنفسجي الصادر عن الشمس، إلى هذا الوسط المادي الصاخب، تولد ذرات الكربون والهيدروجين والأوكسجين والآزوت الأحماض الأمينية، البالغة التعقيد والتركيب. إن هذه الأحماض العجيبة هي بالأصل نوع من تجمعات أو اتحادات لدقائق مادية، وما أن أصبحت في حالة التجمعات (الاتحادات) حتى فاقت سابقاتها بما اكتسبته أو ملكته بوضعها الجديد من ميزة خاصة مذهشة، فهي يمكن لها أن تتحد عمليا بجميع الأشكال المادية الأخرى وتؤلف معها، وفي داخل وسطها، سلاسل طويلة متتالية من الاتحادات. شبيهها (دوكروك) بعربات القطار. وهذه المتواليات الآلية تصبح عندئذ بمثابة معامل صناعية صغيرة وظيفتها هي أن تخضع المادة المجاورة لها وتحيلها إلى تحولات نوعية خاصة، فتكون قد صنعت تجمعات (اتحادات) جديدة وهكذا دواليك...

بعد ذلك نرى (دوكروك) - الذي يركز بالطبع على الفعل الارتجاعي، أو الفعل الذاتي - نراه يميز صنفاً من بين تلك الاتحادات، قد عراه نمو

إجباري، وذلك بفعل نشاط ذاتي (سييراني)، فأحدث تأثيراً في الوسط المحيط ونتيجة هذا التأثير. صنع من نفس طبيعة ذلك الوسط المحيط اتحادات جديدة كانت أكثر ثباتاً وقابلية لتحمل الهجمات ((المضادة)) التي تعثر بها. وهكذا نرى في رأي (دوكروك) أن التوالد الذاتي، والتحسين في التكوين والزيادة في الإتقان، والقدرة على المقاومة، والثبات. كانت درجات متقدمة على صعيد سيرورة (الجزء المعقد) في وصوله إلى مرحلة الخلية الأولى - مرحلة الحياة. حيث يبلغ فيها هذا (الجزء) أو بتعبير أعم المادة) يبلغ أسمى درجات المجد والانتصار فحيويته الجديدة هذه تمكن أن يرتدي آلاف اللبوسات والأشكال.. فجاءت الأعضاء والكائنات الحية والدماغ...

نظرة في طبيعة مفهوم المادة

لقد شغلت المادة الفكر الإنساني منذ القديم. فبعد أن أخضع الإنسان الطبيعة لتأمين حاجاته الحيوية، والضرورية، كأنما راقته لذة استعمال العقل. فراح يستعمله في التفكير في كل شيء في هذا الوجود. وطبعاً كان للمادة منه النصيب الأوفى. وتدرج في بحوثه فيها إلى أن وصل إلى درجة التجريد. فخلق في سمائها الداخلية وأبدع في كشف دقائقها إيما إبداع.

توصل الفكر الإنساني في العهد اليوناني إلى مفهوم ((الذرة)) في المادة: Atome وأشهر المفكرين والفلاسفة فيه هم: ديمقريطس. و أبيقورس ولوقيبس، وانتقل هذا المفهوم إلى الفكر العربي فتبناه وسمى نظرية الذرة بنظرية ((الجوهر الفردي)). وبقي المفهوم الجوهري، هذا، ممثلاً لطبيعة المادة حتى أوائل القرن التاسع عشر، حيث انتقل المفهوم نفسه، من العرب إلى مفكري عصر النهضة الأوروبية، وساد في الفكر الأوروبي وفي المؤسسات العلمية طوال قرون ذلك العصر، وأشهر المفكرين فيه هم: غاسندي، وروبرت بويل. وبعد تقدم العلوم التجريبية، ترسخت النظرية

الجوهرية ((نظرية الجوهر الفرد، العربية -، وأثبتت صموداً أمام العقل في تمثيل الوجود المادي، على الصعيد الفلسفي والعلمي)).

ففي المجال العلمي قادت بحوثها إلى تطوير علمين هامين جداً، هما: علم الفيزياء وعلم الكيمياء، وتوج تقدم هذا العلم الأخير تلك المرحلة بتصنيف المادة إلى - 92 - عنصراً، عرفت باسم سلسلة أو تصنيف مندليف، نسبة إلى العالم الروسي ((مندليف)).

ولكن لم يقتنع العقل، كعادته، فظل يسائل الطبيعة: هل الجوهر ((الذرة)) هو الحجر الأخير في عمارة المادة؟ أو أنه جزء يتجزأ إلى أجزاء أصغر منه بكثير؟! ولكن لو أن الجوهر - الذرة - جسم بسيط لكانت سلسلة مندليف مؤلفة من عنصر واحد؟! وهكذا طعن العقل في نظرية فردية (الجوهر - الذرة) واعتبرها جسماً مركباً لا بسيطاً كما كان يعتقد سابقاً.

تمكن العقل بفضل وسائل البحث العلمي أن يستنتق الطبيعة بالجواب. فنقر قشرة ((الذرة)) ونفذ إلى تركيب بنيتها الداخلية، فوجده عالماً رحباً فسيحاً، على صغره، يشبه عالمنا الشمسي، يسكنه سيارات لا تحصى من الدقائق والجسيمات.

في أوائل القرن التاسع عشر، فتحت التجارب التي أجريت على الظاهرات الكهربائية، الباب على مصراعيه، للبحث في بنية المادة. فقد دلت هذه التجارب على أن الكهرباء ذات الإشارة السالبة (-) تتألف من جسيمات دقيقة جداً تدعى الكهارب أو الإلكترونات. وأن الكهرباء ذات الإشارة الموجبة (+) تتألف من جسيمات دقيقة أيضاً وتدعى البروتونات، ودلت هذه التجارب، على أن كتلة البروتون أكبر من كتلة الإلكترون بـ 2000- مرة.

وهكذا لم تعد الأجسام المادية، مهما صغرت، مؤلفة من (الجواهر الفردية، البسيطة) - أي من الذرات - بل أصبحت الآن بمفهوم العلم، مؤلفة من البروتونات والإلكترونات، بأعداد فائقة الضخامة ولم يعد عدد الجواهر 92 جوهرأ أو عنصراً مادياً، بل أصبح 92 تشكياً للبروتونات والإلكترونات.

وأيضاً لم يقف العقل عند هذا الحد من التقدم في معرفة بنية المادة، فما لبث وجه إليها أصعب الاتهام والشك. وساعده، على ذلك، الاكتشاف العلمي الخطير لظاهرة النشاط الإشعاعي. وكان أول من استخدم ظاهرة النشاط الإشعاعي هذا في بنية الذرة، العالم الفيزيائي الانكليزي (رذر فورد).

وذلك حين تمكن من تحطيم الجوانب الخفيفة يقذفها
بجزيئات (ألفا) الصادرة عن الأجسام المشعة.
والعالم الدانمركي (نيلس بور) الذي كان أول من
شبه بنية الذرة بالمجموعة الشمسية: لها نواة
(شمس مصغرة) تدور وتتجاذب حولها
الإلكترونات، في أفلاك، تماماً كما تدور وتتجاذب
الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس، وقدر هذا
العالم سرعة الإلكترون في حركته حول النواة بـ
1500 ميل في الثانية.

وفي عام 1932 قام السادة: تشادوبك، وجوليو،
والسيدة قرينته، بتجاربهم المشهورة على بنية
الذرة، فلاحظوا أنه توجد في نواتج عمليات تفكك
الذرات وانشطاراتها، جسيمات غير معروفة تعبر
المادة بسهولة بالغة، وتبدو محايدة، أي بلا شحنة
كهربائية. رغم أنه لها كتلة، تساوي كتلة البروتون.
وسموا هذه الجسيمات الجديدة بالنترونات، وطبعاً،
كان لها شأن في الكيمياء النووية - كما هو
معروف. فمن اختلاف أعدادها في نواة العنصر
تتولد العناصر المسماة - بالنظائر - التي تتشابه مع
العنصر الأول بالخواص الكيميائية وتختلف عنه
بالوزن الذري. وبعد عام، أي في سنة 1933،
اكتشف السادة: أندرسون، وبلاكث، وأوكباليني،
من خلال أبحاثهم في عمليات التفكك الذري،

اكتشفوا وجود كهارب - الكترونات موجبة ذات إشارة + وتساوي الكهارب - الالكترونات العادية السالبة ذات الإشارة -، تساويها في الكتلة والشحنة. ما عدا الإشارة - طبعاً..

إذن أصبح لدينا، حتى الآن، أربع جسيمات مادية تتألف منها المادة ككل. هي: البروتون، والإلكترون السالب، والنوترون، والإلكترون الموجب. ولكن عاد العقل إلى شكه الأول. فطعن في - فردية - هذه الجسيمات بالذات وفي عددها بالبنية الذرية - الجوهرية - . وفعلاً توصل العلم في عام 1940 إلى اكتشاف البنية المركبة للبروتون. فهو يتألف من نوترون وكهرب - إلكترون - موجب. وتوصل إلى أن ثمة أعداد هائلة من جسيمات جديدة تدخل البنية الذرية وتزداد فيها ازدياد مذهلاً. وأثبتت خاصة تعرف بها هذه الجسيمات الجديدة هي خاصة عدم الاستقرار. فمدة وجودها فائقة الصغر جداً. عرف من هذه الجسيمات الجديدة نوع يدعى - الميزون - وعمره لا يتجاوز جزءاً من مليون جزء من الثانية. وهناك نوع آخر من عمر الميزون. ونوع ثالث منها، وهو بلا شحنة كهربائية ولا يبقى في الوجود إلا لمدة جزء من مائة مليون جزء من الثانية.

وبعد كشف النقاب عن هذه الطبيعة المعقدة لبنية الأجسام المادية، وبعد هذا التقدم السريع في علم الكيمياء الجوهرية - الذرية - أي على ضوء مكتشفات هذه المرحلة الراهنة - يسهل علينا توضيح مفهوم الوحدة في طبيعة المادة، أي إعادة جميع عناصر المادة إلى عنصر واحد. وبالتالي تحقيق حلم الإنسان منذ القديم، باستحالة عناصر مادية إلى عناصر أخرى. والذي كان قد استخدم - السيماء - لتحويل المعادن إلى ذهب. أنه بعد اكتشاف ظاهرة النشاط الإشعاعي على يد - رذرفورد - المار ذكره، وبعد التجارب التي قام بها العالم - أوتوهان - في عام 1938 لتفكيك عنصر الأورانيوم. يبين بشكل قاطع أن الجزيئات العنصرية يتحول بعضها للبعض الآخر. بفعل الاصطدامات التي تحدث بينها. وطبعاً يصحب هذا التحول حدوث طاقة عظيمة. فعندما يصطدم جزيئان مزودان بطاقة حركية، فالصدمة تولد جزيئات عنصرية جديدة، مع تحول الجزيئين الأصليين وطاقتهم إلى مادة جديدة وأبلغ من عبر عن هذه الحالة العالم الألماني المعاصر المشهور - فرنر هايزنبرك - حيث قال مبهوراً بها: ((وأجمل وصف لهذه الحالة بأن الجزيئات تتألف في الأصل من مادة واحدة)).

إذن ليس ثمة غير مادة متجانسة واحدة، في الواقع
الكيميائي، قابلة للوجود في أحوال مختلفة.

صدر للمؤلف

الروايات:

- 1- قرية رمان – دار الاتقان. دمشق 1965م
- 2- حفنة تراب على نهر جعجع – اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1978م.
- 3- الرجل والزنازة – اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1988م
- 4- سلاماً يا ظهر الجبل - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1990م
- 5- المهندسون – دار علاء الدين. دمشق 1993م.
- 6- مساحة ما من العقل – وزارة الثقافة. دمشق 1995م.
- 7- اشتقاقات الفصل الأخير- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1996م.
- 8- خيمة تخفق تحت الشمس- دار علاء الدين. دمشق 2001م.
- 9- شعلة لا تنطفئ – دار الينابيع. دمشق 2004م.
- 10- حنين اللون الأزرق - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2005م.
- 11- ما بين السطور... ما بين الصخور – دار الخير. دمشق 2008م.
- 12- حدث في ذاك الزمان – دار رسلان. دمشق 2009م.
- 13- حديث الذرى-دار رسلان. دمشق 2011م.

المجموعات القصصية:

- 1- الرقيق- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1985م.
- 2- الحل- دار إيبلا. دمشق 1991م.
- 3- الطائر الكريم – دار علاء الدين. دمشق 1992م.
- 4- العالم في سهرة - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1994م.

- 5- بركة الطيور – دار علاء الدين. دمشق/ قصص أطفال / 1997م.
- 6- نفاذ الرمل- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1998م.
- 7- طيوف- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2000م.
- 8- الرهان- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2002م.
- 9- ثمة موت آخر- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2006م.
- 10- إليك يا ذات النون- دار الينابيع. دمشق 2007م.

الدراسات:

- 1- موسوعة السويداء مع مجموعة من المؤلفين.
دار علاء الدين. دمشق 1995م.
- 2- من دفتر الكلمات- دار الرأي. دمشق 2007م.

الفهرس

رقم الصفحة	العنوان
7	في معنى العمل
21	وحدة الفكر والعمل لدى الانسان
26	في جدل الغاية والعدالة والسعادة
32	دور ملكة الخيال في عمليات الفكر والتربية
42	التربية بين التطبيق العملي والتتنظير المبدئي
48	حول تطور تعليم المرأة في سورية
56	الفن في رسالته التربوية والاجتماعية
62	فن النحت في الحضارة العربية
78	أهمية ابن بطوطة العلمية في حركة الرحلات العربية
91	غوطة دمشق وما قاله الرحالة فيها
98	حكايات الشرق في موسيقى رامسكي كورساكوف
102	حياة الموسيقي لويس هكتور برليوز
107	معاناة الكتابة
109	خاطرة صغيرة في الشعر
110	العودة
115	هل أصبحت الأرض عجوزاً
119	نشأة الكون، الحياة، في كتاب: (قصة المادة السبيرانية والكون)
126	نظرة في طبيعة مفهوم المادة